الفصل الثالث

توظيف النص الأدبي لحل الصراع على الأرض
دراسة في رواية (حمائم في ميدان ترافلجر)
للأديب الإسرائيلي (سامي ميخائيل)

obeikandl.com

obeikandl.com

توظيف النص الأدبي لحل الصراع على الأرض

دراسة في رواية (حمائم في ميدان ترافلجر)

للأديب الإسرائيلي (سامي ميخائيل)(*)

مُقَدِّمَة:

اتخذ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي المستمر منذ عقود، أبعادًا جديدة في الرواية العبرية المعاصرة، ففي الوقت الذي عالج فيه بعض الأدباء الإسرائيليين مجموعة من القضايا الشائكة حول الصراع بين كلا الطرفين، تطل علينا رواية (حمائم في ميدان ترافلجر) التي صدرت في أبريل من عام ٢٠٠٥ للأديب الإسرائيلي "سامي ميخائيل"، لكي تكشف لنا عن تلك المناطق التي قد يتجاهلها بعض الأدباء الإسرائيليين في أعمالهم الأدبية، في تضع الأبناء فوق كل الأيديولوجيات والقوميات، وتحاول الإجابة عن أسئلة أخلاقية ملحة، وتنقب في الواقع الحقيقي للصراع الفلسطيني الإسرائيلي وتكشف عن الوجه الآخر منه،

(*) سامي ميخائيل: ولد سامي ميخائيل في بغداد عام ١٩٣٦ وقد حصل على تعليمه الابتدائي والثانوي فيها وانتمى إلى الحزب الشيوعي العراقي في سن مبكرة. ثم هرب إلى إيران عام ١٩٤٨ بسبب مطاردة السلطات العراقية له على نشاطه الشيوعي. ومن هناك هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٤٩ واستقر في حيفا والتحق بالجامعة فيها فدرس علم النفس والأدب العربي. " ثم أصبح أحد أعضاء رئاسة تحرير الاتحاد الناطقة باسم الحزب الشيوعي الإسرائيلي. ونشر العديد من القصص العربية القصيرة في مجلته الجديدة الشهرية تحت اسم سمير مارد، وكانت تدور حول حياة القادمين الجدد من العراق. وقد ترك ميخائيل هيئة تحرير الاتحاد عام ١٩٥٥ وبعدها هجر اللغة العربية. " حيث تحول ميخائيل إلى الكتابة باللغة العبرية. وعن هذا التحول من العربية إلى العبرية يقول ميخائيل: "بعد قدومي إلى إسرائيل جابهت وضعًا لا يطاق قرأت بالإنجليزية وتحدثت بالعبرية وفكرت وكتبت بالعربية. استمرت هذه الفترة ست سنوات. في تلك الأيام عملت في هيئة تحرير إحدى المجلات الأسبوعية العربية. لغتي العربية الأدبية تطورت في إسرائيل والحاجز الذي بيني وبين اليهود في إسرائيل ارتفع وعلا. وصارت اللغة حدودًا صلبة وراسخة وأدركت أنني ملزم بإنهاء هذه الحيرة والتخبط، كنت ملزمًا بالتخلص من اللغة العربية". أما أهم أعمال ميخائيل فلسفي: "متساوون ومتساوون أكثر" ١٩٧٤عاصفة بين النخيل "رواية ١٩٧٥. أكواخ وأحلام" ١٩٧٨، "حفنة من ضباب" ١٩٧٩، "رعاية" ١٩٨٥، "بوق في وادي" ١٩٨٧، "فكتوريا" ١٩٩٣. وقد نال ميخائيل عدة جوائز أدبية مثل: جائزة بلدية حولون جائزة بلدية بتاح تكفا، جائزة الاتحاد الدولي لأدب الشباب.

وتتمركز حول روافد جديدة من المواجهة الفلسطينية الإسرائيلية، وتحذر من تداعياتها بالنسبة للأجيال القادمة.

وقد أثارت هذه الرواية ردود فعل قوية على الساحة الأدبية في إسرائيل، وأحدثت سجالاً واسعًا بين النقاد، فيما يتعلق بصلتها برواية الأديب الفلسطيني "غسان كنفاني" (عائد إلى حيفا) ١٩٧٠ والتي تتشابه أحداثها مع رواية ميخائيل، وهو الأمر الذي جعل ميخائيل يدافع عن نفسه قائلاً: "لقد انتهيت من كتابة هذه الرواية الجديدة، وهي رواية تواصل ما انتهت إليه رواية كنفاني، ذلك الأديب الفلسطيني الذي اغتيل في السبعينيات ببيروت على أيدينا.. ففي رواية كنفاني تنتهي القصة بلقاء صعب بين البطل وأبيه العربي، حيث يؤكد البطل على هويته بأنه يهودى، وتلك هى أمه وذلك هو أبوه، فيرد الأب: سوف يكون لقاؤك بأخيك في المعركة القادمة. ولكنني أبدأ من هنا من تلك النقطة التي انتهى إليها كنفاني"[1].

وقد ذكر ميخائيل أنه كتب هذه الرواية من أجل الأمومة فقط فقال:

"تعبر روايتي هذه عن وجهة نظر الأم تجاه الصراع، فالصراع عند كنفاني صراع رجولي لا يعرف الجانب الأمومي، فهناك رجلان يدخلان في مواجهة، في حين أن الأمهات يتصرفن بنوع من البلاهة، ولا توجد في روايته ولو بقية من الحب لدى الابن، في حين أن روايتي هذه تعبر عن الأمومة، والأم في الرواية هي التي تقوم بالاتصال بالابن وترعاه وينفطر قلبها لحظة لقائه بأبيه. لقد أراد أبوه أن يمحيه من حياته، بينما هي لم تتنازل عنه، لقد انحزت في الرواية إلى الأم أكثر من أي شخصية أخرى"[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أننا سوف نتناول هذه الرواية بالدراسة والتحليل، بعيدًا عن أحداث رواية كنفاني، وبصرف النظر عما كانت تتشابه أحداثها مع أحداث تلك الرواية أم لا؟ فما يهمنا في المقام الأول، هو رؤية ميخائيل للصراع والمواجهة، لا سيما وهو أديب إسرائيلي تختلف رؤيته، بالطبع، عن رؤية كنفاني، خاصة وأن كل منهما ينتمي للطرف الآخر من المواجهة.

قصة الرواية (عرض مختصر):

تحكى رواية (حمائم في ميدان ترافلجر) عن بطل يعانى طوال الوقت، إنه "زئيف

---

(1) עומר כרמון : סמי מיכאל، 28/5/2005، www.nfc.co.il

(2) דליה כרפל : סופר תחת השפעה، עיתון הארץ ، 13/4/2005.

ابشتاين" ذلك الفتى الإسرائيلي الذي عاش كيهودي في أحضان المجتمع الإسرائيلي الأشكنازى سنوات طوال، وفجأة يتضح أنه عربي فلسطيني تركته أسرته العربية قسراً وهو طفل صغير تحت وطأة أحداث حرب ١٩٤٨، لتأخذه أسرة يهودية وتتبناه حتى يصير رجلاً ناضجًا لديه زوجة إسرائيلية وطفل صغير. وبعد ما يقرب من عشرين عامًا، يلتقي هذا البطل بأسرته العربية الحقيقية وهو بذي العسكرية الإسرائيلية. ويحدث هذا اللقاء نقطة تحول عظيمة في حياة هذا البطل، الذي ظل طوال حياته في رحلة بحث طويلة عن هويته الحقيقية.

ويرتبط "زئيف" بأمه البيولوجية "نبيلة" وتصير بينهما علاقة وثيقة وقوية، ولكنه في نفس الوقت؛ لم يتخل عن أمه اليهودية "ريفاه"، التي ربته كيهودي وتركت له حرية الخيار في تحديد هويته، تمامًا مثلما فعلت أمه الحقيقية "نبيلة". وتقف زوجته الإسرائيلية "عانات" موقفًا متشدداً من هويته العربية، وهو نفس الموقف الذي تبنته أخته الفلسطينية "سناء" من هويته الإسرائيلية. أما أخوه الفلسطيني "كريم" فقد اتفق تمامًا مع موقف أمه بالنسبة لأخيه اليهودي.

وفى نهاية مأساوية، يلقى هذا البطل حتفه هو وأخوه الفلسطيني ـ وكل منهما يدافع عن الآخر ـ على أيدي مجموعة من الشباب الفلسطينيين الثائرين ضد إحدى الغارات الإسرائيلية التي استهدفت مدنهم، ظنًا منهم بأنه إسرائيلي.

ويمكننا أن نلاحظ هنا أن دلالات الأسماء التي اختارها ميخائيل للأبطال، في هذه الرواية، قد تشير إلى معاني عديدة نستطيع من خلالها أن نستشف مقصد الكاتب من اختيار هذه الأسماء بعينها، في ترمز إلى واقع الصراع الذي يعيشه الطرفان، فاختياره مسمى "زئيف" للبطل قد يعنى أن البطل تعامل مع الواقع الذي ساقه القدر إليه بعيني الذئب التي لا تنام إحداهن، وكأنه وقع في فخ الصراع الذي لا ينتهي ويتربص به، فهو خائف من مصيره، لاسيما وهو يعيش بهويتين تتصارع كل واحدة منهن مع الأخرى. كما كان اختياره مسمى "نبيلة" للأم العربية يعنى أن هذه الأم تخلت عن التطرف في الصراع واختارت النبل، نبل الإنسانية، الذي يحتم على الإنسان أن يرتقى بالبشر وينأى بهم عن المخاطر أي كانت، فاختارت نبيلة أن تحافظ على ابنها حتى ولو كان يهوديًا فذهبت إليه واحتضنته، لا سيما وهو ضحية من ضحايا الصراع الذي صنعه الآباء بأنفسهم، كما حاول ميخائيل أن يوضح.

أما اختيار مسمى "ريفاه" للأم اليهودية، وهو من الفعل العبري רב بمعنى (خاصم ـ اختصم مع)، يعنى أن هذه الأم اليهودية في حالة خصومة مع الأم العربية التي ستأخذ منه ابنها بالتبني، خاصة وهى عاقر لم تلد من قبل، فقد ساق إليها القدر "بدر" أو "بدير" الذي تحول إلى "زئيف"، وربما يعنى هذا الاسم أنه البدر الذي ينشده الجميع حتى يسطع ويغير من أوجه الصراع الذي طال أمده.

وفى حقيقة الأمر، لم يكن هدف ميخائيل من هذه الرواية هو رصد لواقع الصراع وأثاره فحسب، فلم يعنيه القضايا الشائكة الممتدة عبر عقود عديدة منذ بدء الصراع، بقدر ما هي محاولة للتحذير من تداعيات هذا الصراع على المستويين النفسي والاجتماعي لكلا الطرفين، حيث يقول أحد النقاد الإسرائيليين: "تحمل هذه الرواية الكثير من الرؤى المتعددة، فالقصة الإسرائيلية، وكذلك الفلسطينية هما قصة واحدة يعيش فيها شعبان بهوية واحدة؛ هي الألم واليتم فحسب... إن زئيف البطل هو نموذج، سواء أكان شخصية عربية أم يهودية، يتطلب منا استيعابه ليبقى السؤال: إلى أي مدى تتشابه دماء البشر؟ لاسيما وقد جاءت شخصية البطل لتمثل خيطًا رفيعًا بين شعبين؛ ولكنه خيط صامت ومؤلم يعرض في النهاية التطلع الخطر لتوحيد أو دمج السمات لكلا الشعبين، وهو تطلع يشكل في الواقع طمسًا للهويتين معًا"[1].

ويقول الناقد الإسرائيلي يورام ملتسر في معرض تناوله لهذه الرواية: "يمكننا قراءة هذه الرواية من زاويتين: الأولى، على أنها قصة إنسانية معقدة، ومؤلمة، وغامضة؛ ومليئة بالشكوك، وفى إطار أنها قصة ميلودرامية مثيرة. والثانية، على أنها بحث تناظري في واقع الصراع بين الشعبين... لقد نجح ميخائيل في السير على حبل رفيع، بين ما هو معقول في عين القارئ وبين الواقع المزعج، دون أن يقطع الحبل أو يقع من عليه"[2].

ويمكننا هنا؛ من خلال ما سبق، أن نعرض لأبرز القضايا التي تناولها ميخائيل في هذه الرواية من خلال المحاور الآتية:

أولاً: الانعكاس الحقيقي لواقع الصراع الفلسطيني الإسرائيلي:

حاول ميخائيل في هذه الرواية أن يرصد الواقع الحقيقي للصراع وتداعياته على كلا

---

(1) יובל אביבי: בלי תוספות בבקשה، וואללה ـ תרבות ובידור، 2005/ 5/ 23، www.walla.co.il

(2) יורם מלצר: הסכסוך הגובר על הכל، עיתון הארץ، 2005/ 5/ 18.

الطرفين، كما لو أنه يبعث برسالة مهددة لطرفي الصراع؛ ويسمو بالأمهات الثكالى اللاتي يضعن أبنائهن فوق كل الأيديولوجيات، وينظرن للصراع من مفهوم الإنسانية فحسب. لقد أعطى ميخائيل معنى جديداً للثكل والألم والضحايا والحروب المتواصلة دون جدوى. ويمكننا، أحيانًا، ملاحظة أن هذه الرواية بلا ظالم أو مظلوم، في مرآة للإسرائيليين، كما يقول النقاد في إسرائيل، يرون فيها كيف تكون الأحاسيس الفلسطينية متساوية تمامًا مع الأحاسيس الإسرائيلية عندما يحل الغضب والانتقام المتبادل محل الحوار والمصالحة، لاسيما وقد امتلأت صفحات الرواية بدماء الإنسانية من كلا الطرفين في رصد حقيقي لتداعيات الصراع من ثكل وعنف وضحايا وإغلاق للمناطق واعتقالات وعمليات فدائية ورد فعل غاضب من كلا الطرفين.

وقد بدت تداعيات هذا الصراع، كما صورها ميخائيل في المظاهر التالية:

(١) الثكل:

استهل ميخائيل صفحات روايته بالتعبير عن صدمة المجتمع الفلسطيني من فقد الأبناء والأزواج، فيطالعنا القاص بحصد لأرواح الرجال الفلسطينيين من قبل الأجهزة الأمنية في إسرائيل:

"اغتال عملاء إسرائيليون، منذ سنوات، زوج نبيلة، أبا سناء وكريم. كما أنهت رصاصات يهودية طائشة حياة زوج سناء وهو جالس في إحدى المقاهي"[١].

وفى تعبير آخر عن حالة الثكل التي يعانى منها المجتمع الإسرائيلي كتداعيات لذلك الصراع المستمر، يفقد سعدون كل أبنائه في دوامة الصراع المستمر ويشبهه القاص بأيوب:

"فقد سعدون كل أبنائه فوزي وسالم ويوسف... إنه أب يفكرنا بأيوب"[٢].

وهكذا، يرصد ميخائيل تداعيات الصراع لدى الجانب الفلسطيني، فيكاد لا توجد أسرة فلسطينية إلا وقد فقدت واحداً أو أكثر من رجالها، فالموت يتربص بالبشرية في كل مكان وفى كل زاوية:

"هنا، يلقى الرجال حتفهم يوميًا، فالموت لدينا يتربص بالحياة في كل زاوية"[٣].

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، הוצאת ספרים עם עובד، תל אביב، 2005، (עמ' 11).
(2) שם، (עמ' 52: 54).
(3) שם، (עמ' 151).

لقد أرهق الثكل الجميع، وجعلهم يتربصون بالأمل في الغد، ولكنهم يتشككون في واقع الغد، في ظل صراع مزمن لم تخمد شعلته بعد:

"فالبشر يتجولون من بلد لآخر، وفى أيديهم شعلة الثكل المطفاة، يراودهم الأمل في الغد، وهم يسمعون الأحداث المروعة التي تحدث في الواقع، في ساحة المواجهة، وقد بدا الآباء الثكالى في هذا الخضم، ، وهم يجلسون على مسرح الأحداث كالأشباح"[1].

ولم يفرق الموت بين كبير وصغير ففي غارة إسرائيلية استهدفت ناشطين فلسطينيين تلقى أم حتفها هي وأطفالها الخمسة:

"لقد قتل معهما أثنى عشر شخصًا من عابري الطريق، من بينهم أيضًا أم وأطفالها الخمسة"[2].

كما تفقد أسرة البطل كل رجالها:

"لم يتبق رجال في هذه الأسرة، لقد ماتوا جميعًا، ربما هذا هو قدر الإنسانية"[3].

وهكذا عكس ميخائيل ما تعانيه الأسر الفلسطينية من ثكل وفقد للرجال والأبناء، بسبب هذه الغارات الإسرائيلية التي تستهدف الفلسطينيين الأبرياء، فلم تفرق بين كبير وصغير. فأم تفقد أطفالها الخمسة؛ وأسرة تفقد كل رجالها. لقد خلف الصراع والعنف المزيد من الألم والحسرة، وتعبأت النفوس بالثأر والكراهية ليدور الطرفان في حلقة مفرغة من العنف والثكل.

ولعلنا نلاحظ هنا أن ميخائيل يرصد واقعًا حقيقيًا يحدث يوميًا على الساحة الفلسطينية؛ وهى ممارسات وحشية يتلذذ بها الجندي الإسرائيلي في حالة غريبة حار فيها علماء النفس في تفسيرها؛ ولكننا يمكننا إرجاعه إلى طبيعة النشأة التي حرص الآباء الإسرائيليون في غرسها في الطفل الإسرائيلي، سواء في البيت أو المدرسة، مما خلق شخصية إسرائيلية تتسم، بصفة عامة، بروح العنف التي تربت عليها منذ صغرها، ولم تفرق بين كبير وصغير، ولكنها تمارس العنف لمجرد العنف.

وهو أمر يفسره الدكتور قدري حفني بقوله: "تسود روح العنف في نفسية هذه

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، הוצאת ספרים עם עובד، שם، (עמ' 185-186).

(2) שם، (עמ' 254).

(3) שם، (עמ' ٢٦١).

الشخصية كتعبير عن طاقة مكبوتة، وعن ظروف وقعت أسيرة فيها. وروح العنف يمكن الإحساس بها كقوة تحريرية كتنفيس عن طاقة مكبوتة، لتخفف من نير العبودية التي لم يعد ضغطها محتملاً، كانعتاق، كتحرير "[1].

"وهو هنا يحتاج إلى ممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه، ومن ذاته الطفيلية الهامشية. إن العنف يصبح هنا مثل الطقوس الدينية التي تستخدمها بعض القبائل البدائية حينما يصل أفرادها إلى سن الرجولة، فحينما يمارس العنف والقتل يتخلص من مخاوفه ويصبح جديراً بالحياة"[2]. وهو وضع ساهمت فيه عوامل كثيرة، من أحداث تاريخية ورغبات قومية أسبغت على الشخصية الإسرائيلية منذ صغرها حتى تتناسب مع طبيعة الصراع ومتطلبات كل مرحلة.

أما الشخصية الفلسطينية فإن مارست العنف فهي تمارسه كرد فعل فحسب، فهي تدافع عن نفسها وعن أرضها التي اغتصبت، وضد الممارسات الوحشية الإسرائيلية على أرضها. واستطاعت من خلال ممارستها للعنف المضاد والمشروع أن تؤثر في الجانب الإسرائيلي؛ رغم تفوقه في القوة والسيطرة.

فعلى الجانب الآخر من الصراع، وفى تناظر مستمر، يعبر ميخائيل عن تداعيات هذا الصراع من ثكل لدى المجتمع الإسرائيلي أيضًا، كما لو أنه يضع المجتمعين على قدم المساواة في مسألة الثكل والعنف، وهو أمر فيه غبن للجانب الفلسطيني، إذا وضعنا في الاعتبار فارق القوة التي هي لصالح الجانب الإسرائيلي، والحق المسلوب الذي يبحث عنه الجانب الفلسطيني. وإذا كان ميخائيل يحاول في روايته هذه أن يبحث أو ينقب في تداعيات الصراع فحسب، دون البحث في إشكاليته، فإن هذا التناظر يشكل في الحقيقة تسطيحًا للصراع ومساواة في الحقوق بين الطرفين.

فيطالعنا القاص بنبأ مقتل افرايم ابشتاين، الأب، في حرب سيناء، كتعبير عن حالة مماثلة من الثكل، يعانى منها المجتمع الإسرائيلي أيضًا:

"عندما بلغ زئيف الثامنة من العمر، سقط افرايم ابشتاين في حرب سيناء. ريفاه

(١) د. قدري حفني: دراسة في الشخصية الإسرائيلية – الأشكنازيم، مركز بحوث الشرق الأوسط، جامعة عين شمس١٩٧٥.، (ص ٢٥٩).

(٢) د. رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص١٨٤).

وزئيف أمعنا النظر في النعش المغطى بعلم إسرائيل، في الوقت الذي كان جنود من وحدته في حرب سيناء يصوبون بنادقهم إلى السماء لتنطلق منها طلقات الرصاص التي أرعبت زئيف "[1].

وربما نلاحظ هنا أن سقوط الأب جاء في حرب غير عادلة، حيث اجتاحت إسرائيل سيناء في حرب ١٩٥٦، في حرب تمثل عدوانًا واحتلالاً لأرض عربية. ولكن ميخائيل يعرض هنا الثكل فحسب دون التدقيق في أسباب الحرب، وتطلعات الجانب الإسرائيلي التي دائمًا ما تأتى على حساب الأرض العربية.

وفي مشهد آخر، يطالعنا القاص بمقتل أحد الإسرائيليين على أيدي عامل كان يعمل في محله:

"صب أدهم جام غضبه على أبو حصوه، فانهال على ظهره بالسكين، فسقط غارقًا في دمائه بين دجاجه "[2].

ويفقد أحد جيران زئيف ابنه الوحيد على أيدي مجموعة مسلحة من الناشطين الفلسطينيين:

"لقد فقد المسكين ابنه الوحيد "[3].

وفي إشارة إلى العمليات الفدائية التي يقوم بها الناشطون الفلسطينيون داخل إسرائيل، يلقى ثمانية إسرائيليين مصرعهم في عمليتين متعاقبتين:

"عاشت إسرائيل يومًا عصيبًا. لقد انفجرت عبوة ناسفة في سوق الكرمل، ووصل عدد القتلى إلى ستة إسرائيليين. وبعد مرور عدة ساعات حدث انفجار آخر في المحطة الرئيسية بعفولا أودى بحياة اثنين آخرين "[4].

ويشير ميخائيل في روايته هذه، إلى أن الموت لم يرعب هؤلاء الفلسطينيين الذين يفجرون أنفسهم كما لو أنهم في شوق دائم إليه:

"لقد وقف أقوى جيش في الشرق الأوسط لا حول له ولا قوة أمام أعداء يتطلعون في شغف إلى القتل والموت. فلم تصنع بعد رصاصات أو قنابل من شأنها أن ترعب منتحر "[5].

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם، (עמ׳31).
(2) שם، (עמ׳127).
(3) שם، (עמ׳159).
(4) שם، (עמ׳179).
(5) שם، (עמ׳179).

وبعيداً عن كلمة "منتحر" هنا التي تعبر عن ظلم تاريخي لشعب يناضل من أجل وطنه، فإن ظلم آخر يجتنبه ميخائيل في حق الفلسطينيين الذين وصفهم بالأعداء، وتطلعهم إلى القتل في شغف، "بيد أن الجمود السياسي، مع ذلك، يحول هذا الظلم من حادثة فردية حادة وذات أبعاد تراجيدية إلى وضع مزمن يولد يوميًا أشكالاً جديدة من الظلم، وهي الأشكال التي قرر ميخائيل أن يلقى عليها نظرة مباشرة وفاحصة"[1].

ولعلنا نلاحظ هنا مديح غير مقصود من جانب ميخائيل لتلك العمليات التي يقوم بها هؤلاء الناشطون الذين لم ترعبهم قوة، فهم يموتون من أجل غاية نبيلة وهي الوطن السليب. ولعلنا نلاحظ أيضًا تحيز ميخائيل للجانب الإسرائيلي لاسيما وأنه يلقب الفلسطينيين بالأعداء وبالمنتحرين، رغم أنه يبدو وكأنه يعرض الثكل في مساواة بين الجانبين، وهو تناقض يظهر مدى انحيازه لطرف دون الآخر. وإذا كان هذا أمراً طبيعيًا على اعتبار أنه أديب إسرائيلي، فإن الإنسانية وحق الإنسانية التي كتب من أجلها هذه الرواية، كما يقول، ربما يقصد بها الجانب الإسرائيلي فحسب، رغم اعترافه بأن كلا الجانبين وقعا في فخ الانتقام والقتل:

"لقد وقع الفلسطينيون والإسرائيليون في دوامة القتل والانتقام"[2].

وهو تحيز يمكن التأكيد عليه من خلال وصفه للعرب بأنهم يتغزون على ثقافة العنف التي تجرى في دمهم، وكأنهم يكرهون الحياة فحسب، وكأنهم غير مسلوبي الحقوق والأرض أو غير محتلين:

"إنهم لم يكرهوا الحياة فحسب. إنهم يكرهون أي شيء تنبعث منه رائحة الحضارة، إنني أعرفهم جيداً مثلما أعرف كف يدي. إذ إنني جئت من الشرق الأوسط. إنهم لن يستريحوا حتى يقضون على كل اليهود. فشهوة العنف تجرى في دمهم"[3].

هذه الكلمات التي جاءت على لسان إحدى الشخصيات في الرواية تبدو وكأنها كلمات تنبعث مباشرة من ميخائيل نفسه، لاسيما وهو من أصل عراقي، أي من هذا المكان من الشرق الأوسط، وعلى دراية واسعة بخصائص وسمات الشعوب العربية التي وصفها بأوصاف مغلوطة بعيدة تمامًا عن الحقيقة، لاسيما وأنه يعرف طبيعة البيئة التي جاء منها.

---

(1) יפעת וייס: שיבה בהמשכים, יונים בטרפלגר, עיתון הארץ(עמ'2). ، 2005/ 5/ 18.

(2) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ'179).

(3) שם، (עמ'181).

ففي لقاء أجرى معه في صحيفة הארץ الإسرائيلية يقول ميخائيل : "عندما أنظر إلى نفسي، أجدني هذا الطفل الذي تركته أسرته العربية، فقد نشأت في أرض عربية، وكانت لغة أمي هي العربية، وبعد طيران استمر عدة ساعات وجدت نفسي في إسرائيل وبهوية أخرى، حتى الإسرائيليين ينظرون إلى على إنني جئت من (هناك) ـ أحمل معي إرث ولغة وعادات العدو "[1].

وتعبيراً عن حالة الثكل التي يعانى منها المجتمع الإسرائيلي من جراء العمليات التي يقوم بها الفلسطينيون، تمتلئ صفحات الرواية، بمثل هذه العمليات :

"وقع بعد ذلك انفجار في إحدى الشوارع التجارية الصاخبة، وترامت الجثث على أبواب المحلات، كما تناثرت الأعضاء في كل اتجاه "[2].

ولعلنا نلاحظ هنا التصوير الدقيق لتداعيات العمليات التي يقوم بها الفلسطينيون، كما لو أنه يحاول أن يرسم صورة تدمي القلوب في وصفه للجثث والقتلى الإسرائيليين، وهو ما لم يفعله في معرض تناوله للعمليات العسكرية الإسرائيلية، التي تتسم بالوحشية والقسوة ضد الفلسطينيين، فهو كما استعرضنا، يكتفي فقط بذكر عدد القتلى والجرحى، في حين أنه يرسم المشهد كاملاً وبمبالغة مفرطة على الجانب الإسرائيلي.

كان موت الأخوين اليهودي والفلسطيني في نهاية الرواية تعبيراً عن حالة الثكل التي تجتاح المجتمعين على حد سواء، وتعبيراً عن تداعيات الصراع على المستوى النفسي. فالبطل الذي يحمل الهويتين معًا يلقى حتفه وهو في طريقه إلى أمه الفلسطينية المريضة، التي استنجدت به، فهرع إليها وهو يستقل سيارته الفارهة التي تحمل لوحات معدنية إسرائيلية، وتعترضه مجموعة من الشباب الفلسطينيين وتعتدي عليه، ظنًا منهم أنه إسرائيلي، فيخرج أخوه الفلسطيني "كريم" ليدافع عنه، فيلقى الاثنان حتفهما على أيدي هؤلاء الشباب الفلسطينيين :

"يا ست نبيلة، يا أم كريم. . . لم أر في حياتي مثل هذه التضحية. لقد دافع كريم عن ذلك اليهودي، عن أخيه، و لقيا الاثنان حتفهما "[3].

وهكذا، نجد أن البطل، الذي يعد نبراس الثكل الفلسطيني الإسرائيلي، يسوقه

(1) דליה כרפל : סופר תחת השפעה، שם، (עמ'4).
(2) סמי מיכאל : יונים בטרפלגר، שם، (עמ'253).
(3) שם، (עמ'259).

ميخائيل إلى الموت في نهاية الرواية، بعد أن نجح في أن يحب أسرتيه العربية واليهودية، كما لو أنه يبعث برسالة مهددة لكل الأمهات بأن يحافظن على أبنائهن من دوامة الصراع.

"لقد أرسل ميخائيل، في نهاية الرواية، الأخوين اليهودي والفلسطيني إلى الموت. ورحل الاثنان وكل منهما يدافع عن الآخر.. إنها نهاية مذهلة.. كما لو أنه يريد أن يقول لنا: إن علاقة الدم أقوى من الدين والقومية، وأنه من الممكن أن نسمو، بسهولة، بأنفسنا فوق كراهية السنين التي يفقد فيها الرجال؛ ويزداد فيها النساء الثكالى، هؤلاء النساء اللاتي عليهن أن يصنعن السلام باسم الأمومة وباسم العقل والحكمة"[1].

وتعلق الناقدة الإسرائيلية ياعيل بنينى على هذه النهاية بقولها: "لقد وصلت التراجيديا إلى ذروتها عندما حاول زئيف أن يصل إلى أسرته في رام الله، وهو يستقل سيارته ذات الهوية الإسرائيلية. ووصلت التراجيديا إلى ذروتها عندما حاول الأخ الفلسطيني أن يدافع عن أخيه زئيف في مواجهة غضب جموع الشباب الفلسطينيين خشية أن يمثلون به"[2].

ويؤكد الناقد الإسرائيلي "يورام ملتسر" على أن هذه النهاية جاءت كرسالة مهددة لكلا الطرفين، وكتحذير من الوضع الذي آل إليه الصراع الفلسطيني الإسرائيلي:

"تتركنا هذه الرواية مع استنتاجات واضحة ومتشائمة فيما يتعلق بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي. فكلا الطرفين يتعانقان عناقًا مميتًا، مثل الذين يعيشون فوق بركان، مهما فعلوا أو امتلكوا، لن يستطيع أحد منهم تغيير حقيقة أن نهايتهم محسومة مع انفجار هذا البركان... فالكارثة تخلف وراءها كارثة على التوالي حتى يصل الفلسطينيون والإسرائيليون إلى مساواة كاملة، ولكن عند موتهم فقط"[3].

أما انطوان شلحت فيرى أن هذه النهاية المأساوية تعبير واضح عن وضع معوج مازال يعيشه الطرفان، حيث يقول: "جاءت هذه النهاية لكي تعبر عن ذلك الواقع المعوج الذي مازلنا نعيشه حتى هذه اللحظة"[4].

---

(1) כשהיונים מתייפחות، מערכת עיתון תלאביב، ספרות، 28/ 5/ 2005. www.tam.co.il/tarbutsifrut/13_5_2005.

(2) יעל פניני: יונים בטרפלגר، 23/ 5/ 2006، www.gfn.co.il.

(3) יורם מלצר: הסכסוך הגובר על הכל، שם.

(4) אנטואן שלחת: מפגש ישן_ סיפור חדש، עיתון הארץ، 24/ 5/ 2005.

(٢) مشاعر الكراهية والعنف :

تركت تداعيات هذا الصراع المستمر منذ عقود أثارها النفسية على كلا الجانبين، فكان للأحداث التاريخية المتعاقبة وقعها المرير، بحيث حمل كل طرف مشاعر الكراهية والغضب تجاه الطرف الآخر، عبر عنها ميخائيل من خلال ما يحدث في المناطق الفلسطينية المحتلة من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلية على الجانب الفلسطيني، وما يحدث في إسرائيل من عمليات يقوم بها النشطاء الفلسطينيون.

لقد حمل اللقاء الأول الذي جمع بين زئيف البطل، ووالديه البيولوجيين مرارة الأيام ومشاعر الغضب والكراهية التي تجلت في أعين والديه، وهما ينظران إليه وهو يرتدى بزته العسكرية الإسرائيلية، تلك العسكرية التي اغتصبت الأرض والولد:

"دخل زئيف إلى حجرة الاستقبال الصغيرة وتجمد في مكانه... كان يرتدى زي الجيش الإسرائيلي... فتوجهت إليه ريفاه قائلة بالإنجليزية: ها هما والداك الحقيقان. للأسف، نسيت اسمهما"[١].

كان مشهد اللقاء ينذر بصدام بين الأب والابن، حيث " كانت الإنجليزية وزي الجيش الإسرائيلي بمثابة حائلاً حقيقيًا بينهما "[٢].

كما أن مشاعر المرارة والكراهية كانت طاغية لدى والدين يران ابنهما على هذه الصورة، لاسيما وهو لقاء لم يكن به عناق أو قبلات بين والدين فلسطينيين يعيشان تحت نيران الاحتلال الإسرائيلي وبين ابنهما (الجندي العسكري).

وكانت نتيجة الحوار الذي دار بالإنجليزية بين زئيف وأبيه الفلسطيني، كافية لانفجار شحنة الغضب والكراهية في وجه الابن الذي أكد لأبيه على إخلاصه لهويته اليهودية:

"سألته نبيلة ألا يشعر بأنها أمه... فأجاب: لا، لم أشعر بذلك، ريفاه التي تجلس هنا، هي أمي"[٣].

فما كان من الأب الذي أسود وجه من السخط والغضب إلا الوعيد لهؤلاء الذين اغتصبوا أرضه وولده، موجهًا حديثه إلى ابنه:

"سيكون لقاؤك القادم مع أخيك في ساحة القتال "[٤].

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 47).

(2) שם.

(3) שם, (עמ' 49).

(4) שם, (עמ' 50).

"لقد أخذوا منا طفلاً فلسطينيًا، وأعادوه جنديًا صهيونيًا كريهًا. هذا كل ما حدث"[1].

وفي تعليق لها على هذا اللقاء الذي تأججت فيه مشاعر الكراهية والعنف تقول الناقدة الإسرائيلية شيرا عنبر: "كانت الجمل التي تبادلها الأب مع الابن باللغة الإنجليزية ذات طابع عنيف وعدواني. والسبب في ذلك، أن الأب كان على يقين بأن زئيف مازال مخلصًا لهويته اليهودية. لذا، فقد أقسم بأن يحارب اليهود حتى يقضى عليهم، وأعلن في تحد أن أخويه، سناء وكريم، سوف يلتقيان بزئيف في ساحة المعركة، وهناك سينتصران عليه"[2].

وكان مشهد واحد من حرب ١٩٤٨ كافيًا لحفر مشاعر الكراهية في نفوس الأباء والأمهات وهم يرون أطفالاً يموتون جوعًا وقتلاً:

"كانت هذه الحرب واحدة من تلك الحروب التي وصلت حتى بيروت في الجبهة الداخلية. وقد رأيت بنفسي، في تلك الأيام، كثيراً من الأطفال وقد تركوا في فراشهم، وفي الحقول، ورأيتهم وهم يلقون من المركبات. وكثيراً منهم بكوا حتى الموت وهم بجوار جثث أمهاتهم"[3].

وتجلت مشاعر العنف على لسان "سناء" أخت زئيف الفلسطينية؛ التي فقدت زوجها وأباها؛ وتيتم أطفالها بفعل الممارسات الوحشية للجيش الإسرائيلي من غارات وتصفية وإغلاق للمناطق وتمشيط للمنازل:

"الله يحرقكم يا يهود، الله يخرب بيتكم"[4].

وعلى الجانب الآخر من الصراع، كانت مشاعر الكراهية والعنف بمثابة غذاء يطعم به الأطفال الإسرائيليون منذ نشأتهم، وغناء يتغنون به في الحدائق وفى رياض الأطفال:

"(تو.. تو.. تو.. كل العرب يموتوا) هكذا كنت أغنى مع الصبية في روضة الأطفال"[5].

ولم يكن الأدب العبري الإسرائيلي بمنأى عن غرس ثقافة الكراهية في نفوس الأطفال تجاه العرب:

---

(1) שם، (עמ' 54).

(2) שירה ענבר: על יונים וזאבים، 2005/ 12/ 17، www.bariqada.co.il.

(3) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 41).

(4) שם، (עמ' 93).

(5) שם، (עמ' 42).

"لقد تشكل وعيه من خلال ثقافة كاملة منظمة، انبثقت من أدب الأطفال ودراسات نخبة من المؤرخين والأكاديميين "[١].

وكانت المظاهرات وإطلاق الرصاصات في الهواء من مظاهر التعبير عن الكراهية والغضب لدى الطرفين:

"كان زئيف يشاهد التلفاز، فرأى كيف كانت ردود الفعل غاضبة. فقد أطلقت الأعيرة النارية في الهواء، وأحرقت الأعلام "[٢].

وما بين سجال العمليات الفدائية والغارات الإسرائيلية تبدو مشاعر الكراهية في فرح كل طرف عند سقوط قتلى في صفوف الآخر:

"كثيرون من اليهود لقوا حتفهم... برافو، صرخ سهيل "[٣].

ويحاول ميخائيل أن ينقب في أسباب هذه المشاعر تجاه الإسرائيليين:

"أعط للاجئ الفلسطيني مصدر رزق، وملاذًا، وقتها ربما ينسى قليلاً من كراهيته وتطلعه للانتقام "[٤].

وفي تناظر مستمر على مدار الرواية تتسبب العمليات الفدائية التي يقوم بها الفلسطينيون في تأجج مشاعر الغضب والكراهية لدى الجانب الإسرائيلي، شأنها شأن الغارات الإسرائيلية، وكأن ميخائيل بصدد عقد مناظرة بين مشاعر الجانبين التي يأججها ذلك الصراع المستمر:

"لم يدرك زئيف أن للفاجعة ساعات محدودة، بعدها تجدها في حاجة إلى الانتقام الذي هو آت لا محالة "[٥].

وهكذا، يمكننا القول إن مشاعر الغضب والكراهية كانت سجالاً بين الطرفين، فعلى الرغم من رصد ميخائيل لهذه المشاعر على مدار روايته هذه، فإنه لم يضع في اعتباره اختلاف الواقع الفلسطيني عن نظيره الإسرائيلي، ذلك الواقع الذي يعيش القهر والذل والبحث عن الحقوق المسلوبة، واقع الأرض المغتصبة، والأب المفقود، والأم الثكلى. إن

---

(1) שם.

(2) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 98).

(3) שם, (עמ' 111).

(4) שם, (עמ' 157).

(5) שם, (עמ' 253).

وضع المشاعر الفلسطينية على قدم المساواة مع المشاعر الإسرائيلية فيه غبن وتغييب للحقوق الفلسطينية، إذا وضعنا في الاعتبار الوضع المأساوي الذي يعيشه الفلسطينيون، وفارق القوة الرهيب لصالح الجانب الإسرائيلي، ومماطلة إسرائيل بالنسبة لوضع اللاجئين الفلسطينيين.

وهو أمر تؤكد عليه شيرا عنبر بقولها: "إن الواقع الذي تعيش فيه نبيلة مختلف تمامًا، فهي تعيش في بيتها الواقع تحت نيران الاحتلال، مع ابنتها التي ترملت، وابنها الذي تركته زوجته، ومع حفيدها المسكين... إن الاحتلال لم يعط لهم الفرصة للعيش حياة عادية، فقد أصبح الغلق والتمشيط والاعتقالات أمرًا عاديًا في المناطق. فمثل هذا الوضع من شأنه أن يزرع الكراهية في قلوب أبناء الأسرة، وخاصة سناء أخت زئيف التي قتلت قوات الاحتلال الإسرائيلي زوجها وأصابتها بالمرارة"[1].

وهو اختلاف لم يعيه ميخائيل، أو ربما كان يعيه وتجاهله فكتب روايته هذه كدعوة إلى نسيان الماضي الأليم طالبًا الجانبين التحلي بشجاعة النسيان، حيث يقول: "إنني آمل أن تساعد هذه الرواية في مداواة جروح طرفي الصراع، حيث إنني لم أتطرق في هذه الرواية إلى المعضلات الكبيرة والمؤلمة لكلا الشعبين... لقد تبنيت في هذه الرواية شعار الأديب والشاعر اليهودي التركي موريس فرحي وهو (شجاعة النسيان). إنني أقول ذلك في كل المؤتمرات التي يشارك فيها ممثلون من الجانبين: (هيا ننسى الماضي من أجل مستقبل أفضل لأبنائنا وأحفادنا)"[2].

(٣) صورة "الآخر" في الرواية:

يمكننا، بداية، أن نقول بأن هناك الكثير من الرؤى والتعريفات للآخر من قبل العلماء والباحثين، "فإذا حاولنا أن نعرف ما هو (الآخر) فيجب أن ندرك أولاً أن هناك ثمة تلازم بين مفهوم (صورة الذات) ومفهوم (صورة الآخر) واستخدام أي منهما يستدعي ـ تلقائيًا ـ حضور الآخر. ويبدو أن هذا التلازم على المستوى المفاهيمي هو تعبير عن طبيعة الآلية التي يتم وفقًا لها تشكل كل منها. فصورتنا عن ذاتنا لا تكون بمعزل عن صورة (الآخر) لدينا، كما أن كل صورة للآخر تعكس ـ بمعنى ما ـ (صورة الذات) وهذا التلازم بين الصورتين قد أبرزته أعمال العلماء النفسيين والاجتماعيين الذين اهتموا بالقضايا المتصلة بالذات وبالآخر"[3].

---

(1) שירה ענבר: על יונים וזאבים, שם, (עמ'2).

(2) דליה כרפל: סופר תחת השפעה, שם، (עמ'4).

(٣) د. فتحي أبو العينين: صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي، مجلة القاهرة، العدد (١٣١)، أكتوبر ١٩٩٣ (ص٩٢).

ومن هنا يمكننا القول: "إن (الآخر) قد يكون أحد الأفراد وقد يكون جماعة من الجماعات أو أمة من الأمم. (فالآخر) قد يكون قريبًا وقد يكون بعيداً. وقد يكون صديقًا وقد يكون عدواً. وقد يكون عدواً نفكر في أنسب الوسائل للتعامل معه "(١).

غير أن هناك حقيقة رئيسية لا يمكن أن نغفلها ونحن بصدد الحديث أو التعريف (بالآخر) وهى أن (الآخر) يكون – دومًا- ثنائية نفى أو نزاع مع (الذات) تختلف باختلاف دوافع وتطور هذه الثنائية، وتختلف أيضًا باختلاف المصالح والأحداث والأهداف.

"فالآخر من خلال وحدات القبيلة والأمة - ومروراً باللغة- هو من وجهة نموذجية مثالية طرف نفى أو نزاع، ولكن هذه الثنائية مرت في الفكر وفى الواقع التاريخي بمراحل مختلفة وتخللها وسائط كثيرة تنوعت معها المسافات بين (الذات) و(الآخر) "(٢).

وهكذا، يبقى (الأخر) - دومًا- صورة تعكسها (الذات) كيفما تشاء، وهى صورة قد تكون بعيدة عن الواقع وقد تكون قريبة، فالمحك الرئيسي في التقاطها يرتبط ارتباطًا وثيقًا بعلاقة (الذات) - التي تعكس هذه الصورة- مع (الآخر)، وبحالة هذه العلاقة من حب أو كراهية أو نزاع؛ أو رغبة في النفي من قبل عدو يعرقل نمو (الذات) فما من (الذات) إلا تغييب هذا العدو أو ذلك (الآخر).

وفي إطار جدلية العلاقة بين (الذات) و(الآخر) عكس ميخائيل صورة الآخر (الفلسطيني) في هذه الرواية وهو يرتبط بحالة من النزاع مع الذات (الإسرائيلية)، وهى حالة تاريخية ممتدة عبر عقود عديدة، اتخذت فيها صورة الآخر (الفلسطيني) أشكالاً ونماذجًا عديدة، ارتبطت برغبة (الذات) الإسرائيلية في نفى أو إثبات هذا الآخر طبقًا لمجريات الصراع وتطوره.

ويمكننا أن نحدد الصورة الحقيقية التي رغب ميخائيل في عكسها عن الآخر (الفلسطيني) في اللحظة التي عرف فيها بطل الرواية "زئيف" أنه عربي، تلك اللحظة التي يمكن من خلالها التعرف عن المكنونات الحقيقية المخزونة في وعى (الذات) الإسرائيلية عن الآخر (الفلسطيني):

"إذن، لم أكن أبدًا ابشتاين، قالها لنفسه، ولم أكن ابنًا لإحدى الأسر الناجية من الحدث النازي، ولم أكن أوروبي الأصل. إنني عربوش، مجرد عربوش "(٣).

هكذا، نقلته هذه اللحظة - لحظة معرفة الحقيقة - من الذات (الإسرائيلية)، ومن

---

(١) د. شاكر عبد الحميد: الذات والآر في عملية الإبداع، مجلة سطور، ديسمبر ١٩٩٦، (ص٦٣).
(٢) الطاهر لبيب: الآخر العربي بين الفرد والجمع، ندوة (صورة الآخر)، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، الحمامات / تونس ١٩٩٣، (ص١٣٨).
(3) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ'42).

المجتمع الاشكنازى المتمدن والمتحضر، كما يقول القاص إلى الآخر بصورته المعروفة والمخزونة في وعيه كإسرائيلي، تلك الصورة التي شكلت وعى جيل كامل من الإسرائيليين تجاه الفلسطينيين، فكلمة "عربوش" لفظة تعبر عن الصورة الوضيعة والمتدنية التي رسمها الفكر الصهيوني عن العرب، وهى الصورة التي جاءت كنتاج لموروث ثقافي وتاريخي صيغ في إطار محاولة تغييب الآخر (الفلسطيني) ونفيه، وهو أمر يؤكد عليه الناقد الإسرائيلي ب. الموج بقوله:

"فجأة، وجد زئيف نفسه غير منتمى للجيل الثاني من أحداث النازي... بل هو منتمى للجيل الثاني من النكبة الفلسطينية. ويحكى القاص هنا، كيف كان زئيف يغنى أغاني معادية للعرب، وكيف كان يصورهم كمخلوقات وضيعة، وخائنين، وقذرين وبدائيين، تمامًا كما صورتهم كتب الأطفال الإسرائيلية التي قرأها في صغره، ودراسات المؤرخين التي درسها في كبره. ففي اللحظة التي أدرك فيها أنه عربي انتابه شعور بالتقزز من نفسه "(١).

ترى؛ ما هي الصورة التي استدعاها "زئيف" عن الفلسطينيين، لحظة معرفته للحقيقة؟ وعكسها القاص في تلك الرواية، إنها هكذا:

"العربي مخلوق وضيع وحاك مؤمرات. والأكثر من هذا، وطبقًا للفلكلور الشعبي؛ فإن العربي الحسن هو العربي الميت فقط، وفيما عدا ذلك، فالعرب خائنون ومحتالون. وهم على استعداد لبيع أمهاتهم من أجل حفنة ذهب، إنهم عرابيش قذرون وبدائيون، إنهم نسل عديم الأخلاق يعيش على السلب والنهب، فالعرب يضاجعون البهائم، ويغتصبون الشقراوات، ويقتلون بناتهم "(٢).

تلك هي الصورة التي استدعاها زئيف حين عرف أنه عربي، وتساءل كيف أكون كذلك، وقد تشكل وعيه ووجدانه من خلال تلك الصورة التي تعلمها في المدرسة وتغنى بها في روضة الأطفال:

"عربوش، تو تو تو، كل العرب يموتوا، هكذا كان يغنى مع الصبية في روضة الأطفال. إنها ثقافة منظمة وشاملة، استقاها من أدب الأطفال ومن دراسات نخبة من المؤرخين الأكاديميين وشكلت وعيه "(٣).

---

(1) ב. אלמוג: ביקורת ספרים על יונים בטרפלגר של סמי מיכאל, 5/1/2006, hptt://stage.co.il/stories.

(2) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 42).

(3) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 42).

"فليمح اسمهم وذكراهم من الوجود، فهم يتكاثرون مثل الحشرات ويسممون الهواء"[1].

ويطالعنا القاص برأيه في النساء العرب، فهم عاهرات يبعن شرفهن بأبخس الأموال:

"إنهن مستعدات للمضاجعة من أجل فلس أو اثنين"[2].

ويجئ ميخائيل بصفة أخرى حديثه على الأدب الإسرائيلي المعاصر، ويضمها إلى قاموس الصفات الذي صاغه الأدباء الإسرائيليون عن الآخر (الفلسطيني)، وهى صفة (إرهابي)، وقد جاء بها لتحل محل (مخرب) التي اعتاد الأدباء العبريون إطلاقها على العرب في الماضي، في إشارة إلى العمليات الاستشهادية التي يقوم بها الفلسطينيون دفاعًا عن أرضهم وحقوقهم ووطنهم، في خلط واضح لمفهوم الإرهاب ومفهوم المقاومة:

"ماذا لو عرفوا، أنه عربي ابن عربي، إنه مشروع إرهابي، وحش قاتل كسائر أبناء شعبه"[3].

وعلنا نلاحظ أن هذه الصورة التي نعت بها ميخائيل الآخر (الفلسطيني) في روايته هذه، تتناقض تمامًا مع الهدف الذي كتب من أجله هذه الرواية، وتتناقض أيضًا مع الواقع العربي الذي عاش فيه ميخائيل، لاسيما وأنه من أصل عراقي، فهذه الرواية صدرت في أبريل من عام ٢٠٠٥، ولا يعتقد أحد أن العرب على هذه الصورة التي جاءت لكي تساير فقط الصورة النمطية الشائعة لدى الأدباء الإسرائيليين عن العرب في إطار مسألة تحقير الآخر ونفيه بل وتغييبه حتى يسهل التعامل معه والانتصار عليه.

وعلنا نلاحظ أيضًا أن نماذج الشخصيات الفلسطينية التي جاء بها ميخائيل تؤكد على هذا التناقض الذي وقع فيه، فالأسرة العربية محور الصراع مع الطرف الآخر، تنتمي إلى الطبقة البرجوازية، فالابن "كريم" يعمل مهندسًا، والابنة "سناء" تعمل طبيبة، والأم "نبيلة" ناشطة في مجال السلام والحوار بين الشعوب، وتتجول بين الدول لنشر مفهوم الحوار والمصالحة، وذلك بعد أن تعلمت الإنجليزية وصارت داعية للسلام من أجل ابنها، كما أن هذه الأسرة تعيش في منزل جميل ورائع بنى على أحدث طراز في المعمار، حيث تطلب الأم من الخادمتين أن يقمن بأعمال النظافة من باب المنزل حتى الحديقة:

---

(1) שם، (עמ' 181).

(2) שם، (עמ' 125).

(3) שם، (עמ' 70).

"من باب الدخول وحتى مظلة العنب في حديقة المنزل "[1].

كما التقى زئيف البطل بكثير من رجال الأعمال العرب:

"كثيراً ما التقى طوال حياته برجال أعمال عرب "(٢).

وإمعانا في هذا التناقض الذي وقع فيه ميخائيل، نجد أن العرب في هذه الروية؛ هم أيضًا مثقفون يقرأون الأدب العربي:

"منذ عام، اشترى له عبد الوهاب هدية عبارة عن جزئين كبيرين من إحدى كتب الأديب المصري الكبير، يوسف إدريس، الذي أصبح بالنسبة له أهم الأدباء العرب في القرن العشرين "(٣).

كما أن أطفال العرب يجيدون استخدام الحاسوب، كما ذكر القاص في الرواية:

"كان سهيل ونهاد يكثرون من اللعب، كعادتهم، بألعاب الحاسوب"(٤).

وهكذا، يتضح التناقض الذي وقع فيه ميخائيل في وصفه للآخر (الفلسطيني) الذي حرص على أن يلقبه؛ على مدار الرواية؛ بـ(العربي) وليس بـ(الفلسطيني)، رغبة منه في تغييب الفلسطينيين ونفيهم، شأنه شأن بقية الأدباء الإسرائيليين، فليس من المعقول أن تنطبق هذه الأوصاف البدائية على مثل هذه النماذج التي أتى بها في وصفه (للآخر)، ولكنه هنا يخضع إلى متطلبات "الأنا الجمعي" وليس "الأنا الفردي"، أي أنه وإن كان على قناعة بأن هذه الأوصاف السلبية تتعارض مع الواقع الذي عاشه ومازال يعيشه، إلا أنه لا يستطيع أن يكون في منأى عن الصفات الشائعة للآخر(العربي) في الأدب الإسرائيلي الذي وضع الصفات العربية الإيجابية بجوار السلبية.

وهى حقيقة يؤكد عليها كثير من العلماء، حيث "هناك نظريات في النقد الأدبي ترى أن العمل الأدبي ما هو إلا وثيقة اجتماعية ثقافية، تعبر، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عن (الأنا الجمعي) وليس بالضرورة عن (الأنا الفردي). وبمعنى آخر، فإن الأديب الفرد هو جزء من كل أيدلوجي، لذا فإنه يعبر عن الأنا (الجمعي) الذي هو جزء منه وينتمي إليه "[٥].

وهو أمر يبدو واضحًا في جدلية المتناقضات التي وقع فيها ميخائيل في وصفه للآخر،

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ'95).

(2) שם، (עמ'140).

(3) שם، (עמ'141).

(4) שם، (עמ'145).

(١) د. أحمد حماد: أيهود بن عيزر، صورة العربي في الأدب العبري ـ في وطن الأشواق المتناقضة، ترجمة: د. أحمد حماد، دار الحمراء للنش، بيروت، ٢٠٠١، (ص١٨)ـ (مقدمة المترجم).

الذي يعي تمامًا من هو؟ وأي قضية يدافع عنها؟ لاسيما وأنه من أصل عراقي وعاش مع العرب في العراق وفلسطين فترة طويلة وعلى دراية واسعة بسلوكياتهم وأوصافهم، ومن هنا فلا نستطيع أن نتقبل منه مثل هذه الأوصاف السلبية التي يدرك تمامًا أنها منافية للحقيقة، وقد نقبل هذا (مع التحفظ الشديد) من أديب إسرائيلي من أصل اشكنازى لم يعش معهم بل نقل أوصافهم عن منظومة أدبية منظمة ومرتبة لخدمة قضية بعينها، وبهدف واضح يستهدف الآخر، ولكنه أبى أن يكون في منأى عن هذه المنظومة الأدبية وتلك الإرادة الجمعية، حتى وإن تعارض ذلك مع فكرته الأساسية التي كتب من أجلها هذه الرواية.

" وانطلاقًا من ذلك فإنه يمكن اعتبار النص الأدبي، أي نص، ليس نتاجًا مستقلاً من أديب فرد يعمل بإلهام ذاتي، كما ينظر إليه عادة من منظور الفكر الرومانسي، بل هو في الأساس تعبير عن إرادة جمعية. ووفقًا لهذا التوصيف، فإن أي فرد يملك مستوى من الوعي المعرفي يفوق الوعي الفردي، يبرز في إنتاج رموز فردية مصغرة، تهدف أساسًا إلى نقل آمال وتطلعات ومشاكل الأنا الجمعي، عبر رموز محددة. وبالتالي فإنه يمكن القول إن استقلالية الأديب ما هي إلا استقلالية جزئية فقط "[1].

وفي تصورنا لهذه الجدلية المتناقضة في هذا العمل الأدبي "حمائم في ميدان ترافلجر"، وفي إطار مفهوم أن العمل الأدبي هو أداة لنقل رسائل أيديولوجية، فإن ميخائيل نقل واقعين، هما واقع الحياة الفلسطينية الحقيقية، والذي جاء في نماذج الشخصيات المتحضرة، كما جاءت في الرواية، وواقع الثقافة الأيديولوجية الموجودة في فكر وخيال الإسرائيليين فقط تجاه حقيقية الشخصية العربية والفلسطينية، وهى ثقافة هادفة لا تعتمد على الواقع في شئ وإنما تستهدف فقط تهميش وتغييب الطرف الرئيسي في الصراع حتى لا يكون ندًا قويًا من شأنه أن يزعزع الركائز أو الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها، لاسيما وأنه يشكل في النهاية حائلاً أمام هذه الأهداف ويعوق تحقيقها.

ثانيًا- فكرة المصير المشترك لطرفي الصراع:

حرص ميخائيل منذ بداية أحداث روايته على تعميق فكرة المصير المشترك بين طرفي الصراع من خلال عقد تناظر مستمر بين الجانبين، في محاولة تأصيل فكرة أن كلا الطرفين لهما حق العيش على هذه الأرض التي ساقهما القدر إليها، فجاءت روايته "كنوع من الفانتازيا التي تدور حول عالم جميل يعيش فيه الذئب مع الحمل، دون أن يكون واضحًا من

(٢) نفس المرجع.

هو الذئب ومن الحمل. . . كما حاول ميخائيل أن يعطى للقارئ انطباعًا بأنه متوازن ومخلص، وحرص على عرض الحقائق واضحة حول الإنسانية، على اعتبار أن القضية بلا ظالم أو مظلوم. فقد جاء اليهود، ممثلون في ريفاه الناجية من أحداث النازي، إلى هذه الأرض دون أن يكون أمامهم خيار آخر، بينما طرد العرب من بيوتهم بمنتهى الوحشية "[1].

وحملت شخصية زئيف البطل هذه الفكرة، وجاءت لكي تمثل خيطًا رفيعًا بين شعبين، ولكنه صوت صامت ومؤلم يعرض في النهاية محاولة لتوحيد سمات الشعبين؛ وتطلع من قبل ميخائيل، لعيش الشعبين تحت مظلة الفدرالية الواحدة، بادعائه أن هذا الصراع لم يكن صراعًا بين ظالم ومظلوم، ولكنه صراع الطرفين ضد القدر الذي أوجدهما معًا في قارب واحد.

"فهذه الرواية تتركنا مع استنتاجات واضحة ومؤلمة فيما يتعلق بالصراع الفلسطيني الإسرائيلي، فكلا الشعبين يتعانقان عناقًا مميتًا، مثل الذين يعيشون فوق بركان، مهما فعلوا أو امتلكوا أو عرفوا الأسباب والدوافع لن يكن في مقدورهم تغيير الحقيقة التي تقول إن نهايتهم محسومة مع انفجار هذا البركان "[2].

وربما يفسر لنا هذا، أن ميخائيل يعرض في هذه الرواية واقع الصراع فحسب دون أن ينقب في إشكالياته أو أسبابه ودوافعه، فقد كان هدفه الرئيسي هو تحذير وتعرية للواقع، وهو أمر فيه تسطيح للواقع والصراع ويثير، في نفس الوقت، تساؤلات عديدة حول الهدف الرئيسي الذي سعى إليه ميخائيل وكتب من أجله هذه الرواية.

وجاء لنا ببطل حمل على عاتقه قضية شعبين متصارعين، "فعندما علم زئيف بحقيقة أنه ابن لوالدين فلسطينيين، وقتها فقط حمل على كتفيه حملاً مزدوجًا وغير محتمل تقريبًا "[3].

وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نعرض هنا لأبرز مظاهر فكرة المصير المشترك، كما جاءت في هذه الرواية، في النقاط التالية:

---

(1) כשהיונים מתייפחות، שם.

(2) יורם מלצר: הסכסוך הגובר על הכל، שם.

(3) יעל פניני: יונים בטרפלגר، שם.

(١) القدر التاريخي :

حرص ميخائيل خلال روايته هذه، أن يضع طرفي الصراع كضحية للقدر التاريخي الذي ساقهما إلى هذا المصير، حيث يرى أن هذا الصراع لم يكن صراعًا بين حق وباطل؛ ولكنه صراع بين حق وحق، فكلا الطرفين لهما حق العيش على هذه الأرض. وقد حاول ميخائيل أن يعرض لهذا من خلال شخصية البطل الذي حمل في نفسه كل أنواع الضحايا لكلا الطرفين، من خلال تناظر مستمر بين طرفي الصراع يمكننا أن نعرض له في النقاط التالية :

(أ) النكبة / أحداث النازي :

قابل ميخائيل النكبة الفلسطينية وأحداث حرب ١٩٤٨، التي تعرض فيها الفلسطينيون لموجة من الطرد والتهجير من أراضيهم، بما حدث لليهود في أحداث النازي، أي أنه قابل النكبة الفلسطينية بالنكبة اليهودية (مع التحفظ الشديد لاستخدام هذا المصطلح)، حيث يتضح من أحداث الرواية أن أسرة "زئيف" من الناجين من أحداث النازي، بينما أسرته العربية من الأسر التي نجت من النكبة الفلسطينية :

"كان زئيف ابنًا للجيل الثاني الذي يمثل أحداث النازي بالنسبة لليهود، والنكبة بالنسبة للفلسطينيين "[١].

وتحكى الأم العربية اللحظات المروعة التي فقدت فيها ابنها الصغير "زئيف/ بدير" وهو في فراشه إبان أحداث حرب ١٩٤٨، فتقول :

"حدث ذلك في حيفا عام ١٩٤٨. كان طفلي نائمًا في فراشه، وفجأة، وفى لحظة واحدة، انقلب العالم في الخارج، حيث امتزجت أصوات القنابل بصرخات البشر، وخرجت لاستوضح الأمر، فجرفتني جموع البشر المنهمرة مثل الطوفان، ولم استطع العودة فأخذت أمزق في لحم هذا البشر الذي كان يدفعني، ولكنى لم استطع العودة إلى طفلي "[٢].

وعلى الجانب الآخر، يحكى صديق الأسرة اليهودية "شمايل" لحظات الهروب المروعة للأم اليهودية إبان أحداث النازي :

"رأيتها بنفسي تخرج من هناك، في حالة يرثى لها، كانت عبارة عن هيكل عظمى

---

(1) סמי מיכאל : יונים בטרפלגר, שם, (עמ׳28).

(2) שם، (עמ׳21).

ممزق، تسير وهى حافية على أرض متجمدة، وتحت سماء تمطر ثلجًا، من خلفها عتمة ومن أمامها ظلمة حالكة. لقد كانت مثل عصفور مفقود يجود بأنفاسه الأخيرة في صحراء شاسعة "[1].

وهكذا، دفع ميخائيل بشخصيات روايته في اتجاه القدر التاريخي، الذي تعرض له كلا الطرفين، فالأم الفلسطينية دفعت الثمن لظلم تاريخي محدد كنتيجة لحرب عام ١٩٤٨، وتحول ذلك الظلم من حادثة فردية حادة وذات أبعاد تراجيدية إلى وضع مزمن يولد يوميًا أشكالاً جديدة من الظلم. ويقابل ميخائيل هذا الظلم التاريخي بظلم آخر تعرضت له الأم اليهودية، وهو أحداث النازي التي تركت أثرًا كبيراً في نفسية "ريفاه" الأم اليهودية العاقر التي تبنت الطفل العربي "بدير"، وأطلقت عليه اسم "زئيف"، وهى تمثل جيلاً بأكمله عاصر تلك الأحداث ونجا منها، أي أن الطرفين ضحية ظلم تاريخي وقع عليهما، وترتب عليه أبعادًا تراجيدية عانى منها الطرفان.

وربما يجدر بنا القول بأن ميخائيل أخطأ هنا عندما ساوى بين الحدثين، فأحداث النازي لم تغتصب أرضًا لليهود، ولم تهجرهم من بيوتهم في حين أن النكبة الفلسطينية تختلف تمامًا عن هذا الحدث الذي وقع لليهود، ففيها تم تهجير آلاف الفلسطينيين من أرضهم، وأبيدت قرى بأكملها واغتصبت أرضًا من شعب عاش عليها آلاف السنين.

كما أن صياغة الأمر على هذا النحو يعد غبنًا وتسطيحًا للصراع ينطوي عليه تساو في مصير تاريخي لا شأن للفلسطينيين به، ومن ثم ضياع للحقوق الفلسطينية المغتصبة.

(ب) مقتل الأبوين:

وفى محاولة للتأكيد على القدر التاريخي الذي لاحق الطرفين على مدار الزمن، حاول ميخائيل أن يبرز ضحايا الصراع في الحروب والعنف، وكأنهم يشاركون في صياغة خطة الصراع الذي لا ينتهي، والذي يلقى بظلاله على الأبناء الذين فقدوا آباءهم، فقد راح الأبوان اليهودي والفلسطيني ضحية العنف، وبقى "زئيف/ بدير" البطل وحيداً يحصد ثمار العنف والحروب، حيث قتل الأب اليهودي في حرب سيناء، بينما كان زئيف في الثامنة من عمره:

"قتل أفرايم أبشتاين... في حرب سيناء، وكان زئيف وقتها قد أكمل الثامنة من عمره"[2].

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 60-61).

(2) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 39).

أما أبوه الفلسطيني "رشيد" فقد قتله الموساد وهو جالس في إحدى المقاهي:

"منذ سنوات قام عملاء إسرائيليون بتصفية رشيد زوج نبيلة وأبا سناء وكريم، وهو جالس في المقهى "[1].

وهكذا، كان مقتل الأبوين محاولة لوضع الحقوق الفلسطينية على قدم المساواة مع الحقوق الإسرائيلية، إن كان هناك حقوق. وهى محاولة لم يجتنبها الكثير من الصواب حتى وإن كانت بهدف التحذير من استمرارية الصراع على هذا النحو، لا سيما وقد كان الأب اليهودي ضحية لحرب استعمارية قام بها الجيش الإسرائيلي من أجل احتلال أرض الغير، أما أبوه الفلسطيني فقد قتله الموساد، وهو يدافع عن أرضه المغتصبة، وعن وطنه السليب، ومن ثم فإن مساواة من هذا النوع تأتى أيضًا في إطار تسطيح الصراع، وتغييب الحقوق الفلسطينية الواضحة.

(ج) الأسرتان الفلسطينية واليهودية:

وفي إطار القدر التاريخي الذي حاول الكاتب تعميقه في هذه الرواية، يجر ميخائيل طرفي الصراع إلى حوارات غير ممكنة بل ومستحيلة، وهى محاولة جعلته يصيغ هذا الحوار بين أسرتين إحداهما يهودية والأخرى فلسطينية. وحتى يستقيم هذا الحوار، ظهرت الأسرة الفلسطينية في ندية واضحة بالنسبة للأسرة اليهودية، وهى ندية تتناقض تمامًا مع الصورة النمطية السلبية التي أسبغها ميخائيل على العرب الفلسطينيين، كما بينا سابقا.

فالأسرة اليهودية تنتمي إلى المجتمع الإسرائيلي الإشكنازى وتعيش في ضاحية "دانيا"، أما الأسرة الفلسطينية فهي تنتمي إلى صفوة المجتمع الفلسطيني المثقف والغنى، ولا ينتمي أفرادها إلى الأسر الفقيرة التي تعانى من فقر الحياة في المناطق المحتلة. وعلى الرغم من أنهم يعانون من مضايقات الاحتلال، فإنهم ينتمون إلى أسرة برجوازية، فالابن مهندس، والابنة طبيبة، والأم ناشطة تجول العالم وتعقد المؤتمرات من أجل المصالحة والحوار بين الشعوب، وكان الأب الفلسطيني مثقفًا ويتحدث الإنجليزية.

من هنا، فقد حاول ميخائيل التأكيد على أن طرفي الصراع كانا ضحية للقدر التاريخي وللأحداث العاصفة التي ساقتهما إلى هذا المصير، دون أن يمتلك شجاعة الاعتراف بالحق المسلوب من أحد الطرفين، وكأنه يدفع شعار (النسيان)، نسيان التهجير والقتل والدمار

(1) שם، (עמ' 11).

الذي لحق بالفلسطينيين، باسم الفيدرالية الواحدة، التي يمهد لها من خلال هذه الفكرة، فكرة المصير المشترك والقدر التاريخي، دون أن ينقب في دوافع الصراع وأسبابه، حتى إننا نجده يدير حواراً آخر في الرواية بين العدوان الإسرائيلي على المناطق المحتلة وبين الأعمال الفدائية الفلسطينية في إطار منظومة الفعل ورد الفعل، دون أن يعترف أو حتى يمتلك من المصداقية الأدبية، شجاعة الاعتراف بحق مغتصب وبوطن سليب.

ولعلنا نؤكد أيضًا على أن هذا السجال الذي يدور بين العدوان الإسرائيلي والعمليات الفدائية الفلسطينية، كما بينا سابقًا، لم يكن منصفًا أو عادلاً، حتى يمكننا القول بأن الثكل هو نبراس الحياة اليهودية الإسرائيلية كما حاول أن يبين، لأن هناك فارقًا كبيراً بين "العدوان" و"الدفاع عن الوطن"، ولكنه سجال جاء به ميخائيل رافعًا شعار (الإنسانية) بهدف التنقيب في تداعيات الصراع على الإنسانية فحسب، ولكنه يقصد إنسانية طرف دون الآخر.

(٢) الأم (الأرض الآمنة للعنصر البشرى):

اتخذ الأدباء الإسرائيليون، أو البعض منهم في كثير من الأعمال الأدبية، من المرأة رمزاً للصراع على الأرض، فقد تصارع "عيسو" و"يعقوب" على الأرض الممثلة في "ليئة" في رواية "عيساو" لمئير شاليف. وكانت "المرأة الزانية" رمزاً لأرض فلسطين التي تناوب عليها واطئوها من الأتراك والإنجليز والرومان وغيرهم في فترات مختلفة من التاريخ بحيث لا يمكن القطع بالحق التاريخي لليهود في فلسطين كما جاء في رواية (رواية روسية) لمئير شاليف أيضًا. والمرأة كانت كذلك أيضًا في رواية (مولخو) لابراهام بيت يهوشواع.

أما المرأة في هذه الرواية، فقد كانت رمزاً للأمن والأمان، في رمز للأرض الآمنة التي تحتضن البشر وتسمو بهم، "فقد خصص ميخائيل روايته هذه لكل الأمهات، الأرض الآمنة للعنصر البشرى... فهي قصيدة مدح للأمهات الصامدات، وللأمهات اللاتي يضعن أبناءهن فوق كل الأيديولوجيات. إنها قصيدة مدح لريفاه الناجية من أحداث النازي، تلك الأم التي تبنت بدير، الذي ترك في فراشه وهو طفل صغير. إنها أيضًا قصيدة مدح لنبيلة، تلك الأم الفلسطينية، التي قاتلت من أجل أن تعيد إليها ابنها البكر الذي تبنته الأسرة اليهودية"[1].

(1) כשהיונים מתייפחות، שם.

ومن هنا، فتبقى "الأمومة هي الأمل، والمشاعر، والإخلاص. . . فقد صاغت الأم البيولوجية نبيلة علاقة حميمة مع ابنها (اليهودي)، ورأت أن كلا الطرفين وقع منهم قتلى سواء داخل المجتمع الفلسطيني أو داخل المجتمع الإسرائيلي، ومن هنا صارت العلاقة بينها وبين زئيف وطيدة وقوية"[1].

لقد دفع ميخائيل، في هذه الرواية، بالأمومة التي تتخطى الأيديولوجيات والقوميات من أجل الأبناء، رافعًا نداء الإنسانية، فلم يكن هناك حدود للحب باسم الأمومة، سواء بالنسبة للأم اليهودية أو الأم الفلسطينية، فلم تحاول إحداهما أن تنأى بزئيف عن الأخرى، حيث طغت الأمومة على كل شئ. ولكي ينجح ميخائيل في ذلك، جاء لنا بامرأة يهودية عاقر نجت بأعجوبة من أحداث النازي والتقطت "بدير" وحولته إلى "زئيف"، وبذلت قصارى جهدها في تربيته حتى صار رجلاً إسرائيليًا ناجحًا. وفي إطار فكرة المصير المشترك، جاء لنا أيضًا بأم فلسطينية فقدت ولدها وعاشت ما يقرب من عشرين عامًا على أمل اللقاء به حتى نجحت في ذلك. وهو أمر يؤكد عليه الموج معلقًا على دور الأمومة في هذه الرواية بقوله:

"إننا نلتقي في هذه الرواية بأمين متعنتين في حبهما لابن واحد، فرق التاريخ بينهن، ولم تكن لدى إحداهن رغبة في الفوز به دون الأخرى، بل أغدقت كل واحدة منهن بحب وفير على هذا الابن، وهو الحب الذي تحطمت من أجله الحدود لديهن، كما وصفه ميخائيل بنفسه"[2].

ويطالعنا القاص في الرواية بالعلاقة الوطيدة التي ربطت بين "زئيف" وأمه اليهودية التي كرست حياتها من أجله:

"بذلت ريفاه قصارى جهدها في تربية زئيف. . . حيث كانت ريفاه، التي تعيش الآن في مؤسسة اجتماعية، تخشى عليه من متاعب الحياة التي ألمت بها. لذا، فقد بذلت ما في وسعها من أجل تربيته"[3].

ومن جانبه كان زئيف مرتبطًا بها ارتباطًا وثيقًا بعد أن فقد أباه اليهودي في حرب سيناء، فكان يقول:

---

(1) יעל פניני: יונים בטרפלגר, שם.

(2) ב. אלמוג: ביקורת ספרים על יונים בטרפלגר של סמי מיכאל, שם, (עמ' 3).

(3) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 23).

"لم يستطع أحدنا أن ينفصل عن الآخر . . . فقد كانت بالنسبة لي، هي الأم والسكن والأسرة"[1].

وهكذا، كانت الأم اليهودية بالنسبة لزئيف هي العنصر الآمن، فقد أحبها وأخلص لها طوال حياته وكان أقرب الناس إليها في مرضها، ولم يتخل عنها، في وطنه الحقيقي كما قالت أمه الفلسطينية:

"لقد انجرف مع الطوفان، ورسى على شاطئ الأم اليهودية، التي كانت بالنسبة له هي الوطن الحقيقي، وليس فلسطين أو إسرائيل"[2].

ولعلنا نلاحظ هنا رغبة ميخائيل في تخطى حدود الوطن إلى ما هو أسمى، إلى الأمومة أو الأرض الحقيقية الآمنة، ولكن السؤال هنا، لماذا كانت الأم اليهودية هي الوطن الحقيقي وليست العربية؟ هل لأنها التي ربته؟ أم أنه انحياز من جانب الكاتب لبنى جنسه؟ أم تأصيل للوجود الإسرائيلي وتأثيره في المنطقة؟ إنها تساؤلات لم يكف الإجابة عنها باسم الرغبة أو الدعوة لتخطى حدود المعقول والكف عن الصراع باسم الإنسانية، في إجابات لا يمكن قبولها بالنسبة لطرف سليب الحقوق والأرض رغم محاولات ميخائيل للمساواة بين الطرفين، ورغم إيجابية الصورة التي ظهرت عليها الأم الفلسطينية هي الأخرى حتى وإن ظلت الأم الفلسطينية تبكى ابنها طوال تسعة عشر عامًا:

"لقد بكيت طوال تسع عشرة سنة، آلاف من الليالي والأيام"[3].

لا سيما وعندما وجدته لم تستطع الحوار معه، ففي أول لقاء بينهما كان زئيف يتحدث الإنجليزية مع أبيه رشيد، بينما هي لم تعرف تلك اللغة، التي وقفت حائلاً بينهما، فكم كانت في شغف لمعرفة ماذا يقول ابنها التي افتقدته طوال هذه السنون، لذا فقد قررت أن تتعلم الإنجليزية من أجل ابنها:

"لقد قررت أن أتعلم. إنني مثل إنسان استيقظ فوجد نفسه في قلب البحر وحيداً، فكان عليه أن يصل إلى الشاطئ وهو يسبح. فإما أن يتعلم السباحة أو يغرق. إن شاطئي هو الدراسة"[4].

---

(1) שם، (עמ' 27).
(2) שם، (עמ' 57).
(3) שם، (עמ' 55).
(4) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 55).

لقد تخطيت الصعاب وتعلمت الإنجليزية في الكبر، وتمكنت منها من أجل ابنها، في لا تعرف العبرية وهو لا يعرف العربية، ومع ذلك صارت بينهما علاقة وطيدة وقوية وتبادلا الخطابات فيما بينهما، أما ابنها فقد شعر بانجذاب شديد نحوها:

"شعرت برابط شديد نحوها "[1].

ومن خلال تلك التضحيات التي تحملتها الأم الفلسطينية يمكن القول: "لقد بقى صوت الأم الفلسطينية في هذه الرواية هو الدوي الهائل الذي يسمع من بين الأصوات الأخرى... فقد استجابت لقلبها وتمكنت من الإنجليزية وتحولت إلى ناشطة سلام، وأعادت بمبادرتها تلك العلاقة مع ابنها البكر "[2].

وبعدها، تتعدد لقاءات زئيف بأمه العربية التي تخبره بأن اسمه الحقيقي "بدير":

"بدير، هذا هو اسمك... فهو يذكرني دائمًا بالبدر في السماء. ياليتك تعلم، كم بحثت عنك بين النجوم "[3].

وإمعانا في معاني الأمومة النبيلة، حاول ميخائيل أن يبعث برسالة مفادها أن الأمومة أسمى من أي صراع أو أية أيديولوجية. فقد وجدت الأم ضالتها، وحاولت التقريب بين "بدير/ زئيف " وأخوتيه "سناء وكريم "، ولم ترغمهما على هذا، بل فكرت في العيش بمكان محايد بعيدًا عن الصراع والقوميات، وكانت على استعداد للتضحية بأي شيء دون أن تتنازل عن أبنائها الثلاثة:

"الآن، ليس في استطاعتها التنازل عن زئيف، كما ليس في استطاعتها التنازل عن سناء وكريم... ولكنها مستعدة لترك بيتها مرة أخرى من أجلهم... إنها على استعداد للعيش في مكان محايد. ولكن أين؟ ومن يقبلها؟ فالعالم العربي مخلص لفلسطين وملئ بالفلسطينيين. وأوروبا بعيدة وباردة. وبالتفكير مرة أخرى أدركت أن هذا حل أحمق "[4].

ولكن ميخائيل يحاول باسم الأمومة والإنسانية، أن يبتعد عن الواقع الحقيقي. فقد هيئ له أن الأم الفلسطينية تستطيع أن تترك وطنها وأرضها من أجل الأمومة، وهي التي تدفع بأبنائها إلى الموت من أجل الوطن السليب، حتى وإن كان هدف ميخائيل هو السمو

---

(1) שם، (עמ' 73).

(2) יפעת וייס: שיבה בהמשכים، שם.

(3) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 87).

(4) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 134).

بالإنسانية ودرء الصراع، فإن هذا يتناقض مع رغبة آلاف الأمهات الفلسطينيات في الشتات في العودة إلى أرضهن.

ومن جانبه "بذل زئيف كل ما في وسعه من أجل أن يحمل بكل حب وقوة ذلك الحمل الممزوج غير الممكن، منذ أن دخلت أمه نبيلة إلى حياته، حيث صارت علاقتهما حيوية وعظيمة في مقابل الواقع الفلسطيني الإسرائيلي الوحشي والمستمر، حيث الاحتلال من جانب والمقاومة من جانب آخر. لقد حاول ميخائيل أن يعكس واقع الأرض الدموية التي يعيش عليها شعبان "[1]، من خلال أمين لابن واحد نجح في حبهما وجمعهما معًا، ولم يكن لديه سؤال ماذا يفعل ولما كل هذا:

"لقد كان شغلها الشاغل طوال الوقت هو، هل يشعر بأنني أمه أم لا؟ فما كان في عينيي ريفاه كان أيضًا في صوت تلك المرأة، رجاء وتضرع من جانب وخوف من جانب آخر "[2].

وهكذا، كانت الأمومة طاغية فوق الصراع وسامية فوق الأيديولوجيات دفع بها ميخائيل كرسالة لكل الأمهات لكي يحافظن على أبنائهن. ولكن يبقى السؤال، في أي اتجاه دفع بهذه الرسالة، هل إلى الجانب الفلسطيني أم الإسرائيلي؟ وهو سؤال نستطيع الإجابة عنه إذا لاحظنا أن أحلام الأمومة في هذه الرواية، تتناقض مع أحلام الأبوة التي مات بسببها الأب الفلسطيني:

"رشيد رجل، شكلت وعيه الثقافة الذكورية، فقد نما في قصر من الأحلام العربية، إمبريالية فخمة، مقاتلوها غلاظ أشداء "[3].

أما أحلام الأمومة في أحلام تنبذ الماضي الذي بنى بالدم والنار وتفكر في الحاضر والمستقبل: "لقد أرادت أن ينصت إلى لغة أحلامها، أحلام أم وليست أحلام ماضي بنى ودمر بالدم "[4].

وهكذا نستطيع القول بأن هذه الرسالة قد تكون موجهة للأم الفلسطينية فحسب، وهو أمر يتناقض مع حقيقة الصراع وتداعياته كما جاء بها ميخائيل، وقد تكون موجهة

---

(1) יעל פניני: יונים בטרפלגר, שם.

(2) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 72).

(3) שם, (עמ' 56).

(4) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 56).

للأمومة، بصفة عامة، التي يمكن من خلالها أن نرى كيف يكون الوطن وكيف نتماثل مع الأمومة، "التي هي من وجهة نظر ميخائيل الاحتمال الوحيد للتغلب على التقسيم الشائع لدى الرجال الذي يقسم العالم إلى شطرين هما الأشرار والضحايا، والبحث عن أمر آخر. . . وبناء على ذلك فهو يصنع مواجهة بين النساء اللاتي يبعثن الحياة وبين الرجال الذين يقتلون الحياة "[1].

(٣) ازدواج الهوية:

لم يعتني ميخائيل، في هذه الرواية، بالقضايا الشائكة الممتدة عبر عقود عديدة منذ بدء الصراع بقدر ما حاول التحذير من هذا الصراع على المستويين النفسي والاجتماعي، لذا فقد جاء لنا ببطل أشبه بالجبل الذي يحمل فوق كاهله هموم وطنين، إن صح التعبير، بحكم انتمائه بالنشأة إلى المجتمع الإسرائيلي، وبالدم إلى المجتمع الفلسطيني، فقد كانت اللحظة التي عرف فيها "زئيف/ بدير" أنه فلسطيني بمثابة الصدمة التي شطرته إلى نصفين متضادين يحملان من الحروب والذكريات والتاريخ والأحداث والعنف والثكل ما يدفعهما إلى الدوران في حلقة مفرغة من الكراهية والانتقام.

"إن كل أنواع الأساطير المتعلقة بالتضحية ألقيت على كاهل هذا البطل، لاسيما وأنه الضحية الحقيقية في هذه الرواية وهو يبحث عن حقيقة هويته، فهو في الواقع نبراس الثكل الفلسطيني الإسرائيلي، سواء أكان يهوديًا أم عربيًا "[2].

"لقد وقع زئيف بين ثقافتين، إحداهما فلسطينية والأخرى إسرائيلية، ورغم أنه يشعر بكينونته اليهودية والإسرائيلية، إلا أنه تكيف مع الأسرتين ومع الثقافتين. . . فأقام علاقة حميمة مع أمه الفلسطينية، وعاش بسلام مع أسرتيه. وهذا كله يمثل خلفية للصراع في تلك البقعة من الأرض: أعمال المقاومة، وانفجار حافلات، وعالم من المحتلين في مقابل من احتلت أرضهم "[3].

وقد حاول ميخائيل من خلال هذا البطل أن يجر طرفي الصراع إلى حوار غير ممكن بل ومستحيل من خلال فانتازيا أو صياغة لشخصية مزدوجة الهوية لم تحسم بعد كينونتها، هل

---

(1) שם، (עמ'4).

(2) יובל אביבי: בלי תוספות בבקשה، שם.

(3) דבורה רם: יונים בטרפלגר- סמי מיכאל، www.akatar.com./9_sefer.htm

هي فلسطينية أم إسرائيلية؟ إنه انعكاس حقيقي وطبيعي لحالتي الصراع والاحتقان في كلا المجتمعين الفلسطيني والإسرائيلي.

"ويمكن القول، إن هذه الرواية حملت الكثير من الرؤى المتعددة، فالقصة الإسرائيلية، وكذلك الفلسطينية هما قصة واحدة يعيش فيها زئيف بهوية واحدة، هي الألم واليتم فحسب... إن زئيف البطل هو نموذج، سواء أكان شخصية عربية أم يهودية، يتطلب من الجميع استيعابه، ليبقى السؤال المطروح: إلى أي حد تتشابه دماء البشر؟ "(١).

لم يكن فزع الانشطار إلى جزئين أمرًا هينًا، بل كان لعبة تعذب فيها "زئيف" وتساءل، من أجل من هذه اللعبة؛ وكيف يصبح، فجأة، فلسطينيًا مسلمًا بعد أن كان إسرائيليًا يهوديًا:

"من أجل من هذه اللعبة؟ إنني يهودي إسرائيلي. إذ أنني لا أستطيع أن أكون فلسطينيًا مسلمًا. فإذا ارتبطت بأسرة نبيلة لاعتبروني في إسرائيل خائنًا، وعلى الجانب الآخر سأكون محل شك "(٢).

وهكذا، يبدو أن ميخائيل وضعنا أمام جدال فلسفي، حول هوية الإنسان وهل الهوية تكون بالنشأة أم بالدم؟ وهل من الممكن أن يحمل الإنسان هويتين معًا؟ وهل تطغى إحداها على الأخرى؟ إنها تساؤلات حاولت أن تجيب عنها الناقدة الإسرائيلية شيرا عنبر، ولكنها فشلت في ذلك، حيث تقول:

"أثارت قصة زئيف ونهايتها المدهشة، موضوعات عديدة جديرة بالبحث، فقد أثارت أسئلة أخلاقية فيما يتعلق بهوية الإنسان، والصراع غير المحتمل بين دولة إسرائيل والفلسطينيين، وأظهرت كيف تكون العلاقات مختلفة إلى هذا الحد بين أبناء الأسرة الواحدة. هذه القصة تبحث في المركب أو العنصر الذي يمكن أن نعتمد عليه في تشكيل هوية الإنسان، هل هو أصل الإنسان ونسله، أم البيئة التي نشأ فيها وتعلم؟ "(٣).

ويحاول ميخائيل الإجابة عن هذا السؤال، في هذه الرواية، على لسان القاص بقوله:

"يولد الجميع كوعاء فارغ، والبيئة والدراسة يشكلان الفرد. أما الأصل والنسل والجذور والجينات في أمور غير مهمة، فهو إسرائيلي، ويهودي "(٤).

---

(1) יובל אביבי: בלי תוספות בבקשה، שם.

(2) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 25).

(3) שירה ענבר: על יונים וזאבים، שם، (עמ' 3).

(4) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 43-44).

وهنا يحاول ميخائيل فض التنازع الرهيب في نفسية البطل المزدوج الهوية بكل سهولة ويسر، فهو يلغى الدم والنسل، ويغتصب الفرد مثلما اغتصبت الأرض، ويحكم على البطل قبل أن يحكم على نفسه، ويختار له الطريق ويحدده، لاسيما وأنه يطلق عليه منذ الصفحات الأولى للرواية "زئيف"، ولم يذكر "بدير" سوى مرتين أو ثلاثة. وربما كانت إجابة ميخائيل غير كافية أو مقنعة "فهل معنى أن زئيف نشأ وتعلم كيهودي وشعر كذلك، أنه أصبح يهوديًا، حتى وإن ولد لأسرة فلسطينية؟ وماذا تمثل الأسرة الفلسطينية في حياة زئيف؟ وإلى أي حد تكون أهميتها؟ "[1].

وتأخذ هوية البطل شكلاً معقدًا فيما يتعلق بعلاقاته مع الآخرين، ففي تصارع نفسي رهيب يخبر "زئيف" محبوبته "عانات" قبل أن يتزوجها بأنه عربي:

"لقد خدعتك وقتًا طويلاً، ولم أخبرك بحقيقة أنني عربي "[2].

فتندهش عانات، حيث يأخذها ميخائيل في جدلية معقدة وسجال متجدد حول هل النشأة بالبيئة أم الدم، ولكنها تؤكد له على أنه يهودي حتى الثمالة:

"ما هذا؟ سألته عانات... ريفاه وأفرايم هما والداك الحقيقيان، لأنهما اللذان ربياك. ألم تقل لوالديك الحقيقيين أنه من العبث أن يستيقظ إنسان بعد ثمان عشرة أو تسع عشرة سنة؛ ويجد أمه التي عرفها ليست هي أمه الحقيقية، وأن الدولة التي نشأ بها هي عدوه "[3].

وتضيف "عانات" قائلة ومعبرة في دهشة عن هذا الموقف بقولها: "ماذا أصابك سيدي. إنني أحبك، ولكن يجب أن تعرف أنني لن أصبح عربية من أجلك... ولن أصبح زوجة لعربي "[4].

فيجيبها زئيف: "هناك في العالم ما يقرب من مائتين مليون عربي، وهم ليسوا في حاجة لعربية أخرى... ولا يوجد من يجبرك على أن تكوني كذلك دون رغبة منك. فنحن ليسوا معنيين بهندسة الهويات "[5].

---

(1) שירה ענבר: על יונים וזאבים, שם, (עמ' 2).
(2) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם، (עמ' 71).
(3) שם، (עמ' 72).
(4) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם، (עמ' 80).
(5) שם.

ولكن "عانات" ترى أن الأمر لا يتعلق بهويته فحسب، ولكن الأهم هو ماذا يريد زئيف نفسه؟ وكان عليها أن تتزوجه حتى تواجه علاقاته التي تقوى مع أمه الفلسطينية، ولكن زئيف يؤكد لها أن والديه الحقيقيين هما هذان الفلسطينيان: "هذان هما والداي الحقيقيان"[1].

ومن جانبها لم تقتنع عانات بتلك الهوية، بل تؤكد له على أنه يهودي إسرائيلي وأن والديه الحقيقيين هما اللذان ربياه، وأن وطنه الحقيقي هو الوطن الذي نشأ فيه وتربى على تقاليده. وهو سجال يأخذنا إلى سؤال آخر حول إلى أي مدى تصل حدود الهوية سواء أكانت يهودية إسرائيلية أم عربية فلسطينية؟ لاسيما وأن زئيف لم يحدث وأن اختار هويته فقد بقى، طوال الرواية مخلصًا للهويتين معًا ونجح في حب أسرتيه معًا.

ويمكننا القول إنه "بقى غير واضح، يتحرك في عالم القصة، قصة الواقع، دون أن ينجح في التصالح مع النفس ويحدد ذات مرة هويته، لكنه بقى مع قناعاته المزدوجة، وبنفس راضية"[2].

لقد تجرد من القيود التاريخية المكبلة؛ "فطالما أن الأمر ممكن، فقد تحرر من قيوده التاريخية المزدوجة"[3]، فمنذ تلك اللحظة التي عرف فيها حقيقته "وقد تحولت حياته إلى قرقعة بلا توقف، وخيم خطر الانهيار من فوقه"[4]، رغم أنه كان يتصرف بنوع من الحيادية المدهشة مع هويتيه الاثنتين، وكأنه ترك الواقع كي يسوقه إلى مصير لا يعرفه، فإنه اقتنع به دون أن يدركه، فلقي حتفه في نهاية الرواية بفعل تلك القيود التاريخية التي تحرر منها، وربما كان هذا هو المخرج الوحيد الذي حل مسألة الهوية للبطل الذي عانى ويلات الواقع المرير الذي عاشه، واقع الصراع لشعبين يفتك كل منهما بالآخر كما يقول:

"ها هم اليهود والعرب يفتك كل منهم الآخر... ضحك زئيف قائلاً: إنني الآن أنتمي لكلاهما"[5].

وهكذا، حاول ميخائيل أن يعكس الواقع الحقيقي للصراع في مسألة هوية البطل المزدوجة، وهى مسألة ربما حاول أن يعكس من خلالها رغبته في نبذ هذا الواقع الأليم، وقد

---

(1) שם، (עמ' 72).

(2) ב. אלמוג: ביקורת ספרים על יונים בטרפלגר של סמי מיכאל، שם، (עמ' 5).

(3) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 28).

(4) שם، (עמ' 40).

(5) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 7).

يكون ذلك رغبة منه في تأصيل الوجود اليهودي على هذه الأرض، خاصة وأنه لم يقو على الدفع بالبطل باتجاه الهوية العربية، فعلى العكس فإنه يميل بالبطل إلى ناحية الهوية الإسرائيلية أكثر، لاسيما وأنه يطلق عليه طوال الرواية "زئيف" وليس "بدير" وهو اسمه الحقيقي، وهو أمر يؤكد عليه ميخائيل على لسان القاص من خلال أم البطل الفلسطينية، التي اقتنعت تمامًا بأنه سيختار إسرائيل:

"لم يكن لديها شك، في أنه لو أجبر في يوم من الأيام على الخيار بينهما وبين إسرائيل، لاختار إسرائيل"[1].

وهو أمر يتضح أيضًا في صياغة ميخائيل لحوارات الهوية، هوية البطل، فعلى الرغم من أن زئيف ارتبط بأمه الفلسطينية وأحبها وأحب أخوته، وكان يتقابل مرات عديدة مع أمه "نبيلة" سرًا وتكفل بمصاريف علاجها بأمريكا، فإنها كانت أم بالتبني:

"لقد تبناها كأم، تمامًا مثلما تبنته ريفاه كابن"[2].

ولكن "نبيلة"، الأم الحقيقية، لم يعنيها ذلك فقد اقتنعت بقدرها، حيث وجدت ولدها المفقود، وهو ما تمنته فحسب، وأشفقت عليه وأدركت بفطنتها أنه في وضع صعب ومرير، خاصة وأن لديه ولدا وزوجة إسرائيلية، ووطنا ليس بالسهولة أن يهجره. إنه قدر أشبه بالطائرة الورقية التي بلا خيط، كما تقول الأم الفلسطينية في هذه الرواية:

"لدى شعور بأنني أركض وراء طائرة ورقية، ويبدو لي أنني أمسك بالخيط في يدي. هذا هو قدرنا المغبون، يا ولدى، تمامًا مثل طائرة ورقية تهبط من أعلى بدون خيط لها، ثمة خيط أي خيط"[3].

وفي إطار الحيادية التي حرص عليها زئيف كان يعترف بأن "نبيلة" هي أمه، في حقيقة لا يمكن إنكارها، وكأنه يناقض رغبة القاص في أنها أم بالتبني: "نبيلة هي أمي. إنها الحقيقة التي لا أستطيع محوها"[4].

وفي نفس الوقت، يأخذنا القاص في اتجاه مشاعر مزدوجة ومترددة، فقد كانت مشاعره تجاهها مختلفة عن مشاعره تجاه "ريفاه" الأم اليهودية:

---

(1) שם، (עמ' 98).

(2) שם، (עמ' 86).

(3) שם، (עמ' 101-102).

(4) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 172).

"لم يستطع أن يشعر تجاهها بمشاعر ابن تجاه أم، مثلما كان يشعر تجاه ريفاه"[1].

ولعلنا نلاحظ مرة أخرى، أن التردد والحيرة كانت في اتجاه الهوية العربية فقط، وهو أمر يعكس نية القاص الحقيقية، التي انعكست هذه الحيرة على لسانه، وكأنه يصف زئيف وأحاسيسه من ناحية، ويؤكد على المثل العليا التي تعلمها وحالت دون إنكار أمه العربية من ناحية أخرى.

وهو أمر يأخذنا تباعًا إلى رغبة ميخائيل في تسطيح الصراع، وتهويد ما هو ليس بيهودي، حتى وإن كان إنسانًا، وهو ما يعكس أيضًا إحساسًا دفينًا لدى ميخائيل بغلبة الحق الفلسطيني على الحق الإسرائيلي، الذي يقابله في الرواية بغلبة الهوية اليهودية على الهوية العربية لدى البطل. وهو ما يتناقض أيضًا مع اعتراف ميخائيل نفسه على لسان القاص بأن البطل عربي مسلم طبقًا للشريعتين اليهودية والإسلامية:

"ماذا لو عرفوا بأن الجالس بجوارهما هو عربي مسلم طبقًا للشريعتين اليهودية والإسلامية"[2].

وربما يأخذنا هذا الأمر مرة أخرى إلى نوع من الازدواجية لدى الكاتب نفسه، الذي عاش في أحضان المجتمع العربي سنوات طوال قبل أن ينتقل إلى فلسطين ويصبح إسرائيليًا، حيث يتضح هذا في التناقض الذي وقع فيه خلال وصفه للشخصيات العربية وفى معالجته لهوية البطل، فربما يشعر القارئ، في أحيان كثيرة، أن ميخائيل نفسه هو المتحدث، وهو الذي وقع في فخ الصراع.

وربما تأخذنا هوية البطل المزدوجة أيضاً إلى الواقع الذي يعيشه عرب إسرائيل بكل مشاكله وإشكالياته، وهو الواقع الذي يفرض سؤالاً قد يصعب الإجابة عنه، هل انتماء الإنسان يكون للواقع الذي يعيش فيه أم للمكان الذي ولد فيه؟

إن فكرة المصير المشترك التي تحدث عنها ميخائيل وصاغ من أجلها هوية البطل على هذا النحو، لم تنبع عن قناعة كاملة بحق الفلسطينيين في الصراع، فهو يساومهم على الولد والأرض، ورغم أنه من بين قلة قليلة دعت إلى إقامة دولة فيدرالية بين الفلسطينيين والإسرائيليين دون أن يحدد لنا ملامح هذه الفيدرالية، فإن تفاعلاته مع الواقع الإسرائيلي، على مدار تلك الرواية، تدفع به في اتجاه قائمة "أدباء صهيونية الحد الأدنى"، إن صح

(1) שם، (עמ׳174-175).
(2) שם، (עמ׳179).

التعبير، أي هؤلاء الذين يحسبون على ما يسمى باليسار الإسرائيلي ويضعون خطوطًا حمراء لتنازلاتهم، فهم مازالوا يعيشون تحت تأثير الثقافة الصهيونية، وإن بدوا مخالفين لسياستها، وهو أمر يبدو واضحًا في الحديث الذي أجرته معه الصحفية الإسرائيلية "داليا كاربيل"، ونشرته في صحيفة "هاآرتس" تحت عنوان (أديب تحت تأثير).

وربما كانت "كاربيل" صادقة إلى حد بعيد، فلم يفق ميخائيل بعد من غيبوبة الصهيونية ولم يسلم بوضوح ويعترف بحق الآخر رغم اعترافه بنديته، وأبقى الأمر ملتبسًا، فيما يتعلق بفكرة المصير المشترك، وفيما يتعلق بهوية البطل التي صارت معضلة لم يستطع ميخائيل حلها، فقضى عليه في نهاية الرواية، في إشارة إلى يأسه من حل هذا الصراع المزمن، وصعوبة تحقق تلك الفيدرالية التي يحلم بها، وإلى الوضع المأساوي الذي آل إليه طرفا الصراع، فجرفتهما عجلات العنف دون أن يقوى أحدهما على وضع العصا في تلك العجلات.

ثالثًا: ثقافة العنف ونبذ السلام:

حاول ميخائيل، في هذه الرواية، كما قلنا سابقًا، أن يجر طرفي الصراع إلى حوارات غير ممكنة، بل ومستحيلة على أرض الواقع أو ساحة المجابهة، وفشل في هذا فشلاً ذريعًا، حيث تمكنت ثقافة العنف من طرفي الصراع، نتيجة تراكمات تاريخية حبلى بثقافة الكراهية والعنف المتبادل، حملها جيل بعد جيل، لتبقى النفس البشرية أسيرة لأحداث تاريخية حفرت في الذاكرة أيامًا من الألم والثكل واليتم، وهى أمور يصعب مداواتها برواية يكتبها أديب أو حل نظري يوقع عليه طرفا الصراع فحسب.

إنها أمور تحتاج إلى محو تام لثقافة العنف التي تغلغلت في النفس البشرية، وكادت أن تحطمها ودفعتها إلى نبذ السلام، عبر عنها ميخائيل في مساواة غريبة بين طرفي الصراع أو بين صاحب الأرض ومغتصبها، أو بين الظالم والمظلوم. وبدا أنه يسمو بالنفس البشرية التي يجب من أجلها أن نسمو فوق كل الأيديولوجيات والقوميات، ورفع شعار (شجاعة النسيان) دون أن يحاكم السبب، ودون أن يمتلك (شجاعة الاعتراف) بأن البيت والأثاث والولد الذين صاروا لمهاجرين يهوديين جلبتهما الوكالة اليهودية إلى حيفا عام ١٩٤٨ هما لهذين الزوجين الفلسطينيين اللذين طردا من بيتهما عنوة، ليحلا ضيفين في بيتهما بعد تسعة عشر عامًا.

إن النفس البشرية التي تمتلك مثل هذه الشجاعة ـ شجاعة نسيان وطن ـ ليست بالنفس السوية، في مقابل النفس السوية التي لا تمتلك شجاعة الاعتراف بحق الغير. وهو أمر يمكننا معالجته، عبر الرواية، من خلال المحاور التالية:

(١) ثقافة العنف:

امتلأت صفحات الرواية بالكثير من مشاهد العنف المتبادل بين قوات الاحتلال الإسرائيلية وحركة المقاومة الفلسطينية التي يمثلها النشطاء الفلسطينيون، الذين يقومون بعمليات استشهادية داخل إسرائيل، ردًا على الممارسات الوحشية الإسرائيلية. وقد أرجع ميخائيل كل هذا إلى ثقافة العنف التي تلقى بظلالها على طرفي الصراع حتى تسممت الأرض وفسد الهواء:

"لم تبلغ المسيرة نهايتها بعد، فمازلنا، في نفس الوقت، في مرحلة الصقل. إننا نستخدم الكرة الأرضية كما لو كانت ساحة للتدريبات... ولتجارب القنابل والقذائف... فسممنا بهذا الهواء والأرض. وفي نهاية المسيرة ستصبح الأرض مزبلة متعفنة، يتكاثر فيها الدود والصراصير وجهيض البشر"[(١)].

وقد آلت الأرض إلى هذا الوضع بعدما تفشت ثقافة العنف وفشل البشر في نبذها، حتى جفت الأرض وندر الماء (السلام):

"عندما لا يوجد نبت، لا يمكن أن نحصد زرعًا. ربما لأن الأرض متعنتة، وربما لأنه لا يوجد ماء كاف، وربما لا يوجد ماء في الأصل. ولا يمكننا أن ننبت زرعًا بدون ماء"[(٢)].

وهكذا تبدو الأرض في حاجة إلى (سلام)، وكأن البشر يسممونها بأفعالهم، في تنبذ العنف وتدعو للسلام، ولكن البشر ينبتون بذور العنف فيحصدون الموت. هكذا، قالها ميخائيل دون أن يحاكم السبب ـ كما ذكرنا سابقًا ـ فقد تعلم زئيف من المجتمع الإسرائيلي ثقافة العنف، وعلم من خلالها أن العرب يحيكون المؤامرات ضد اليهود:

"لقد كان مؤمنًا، كما علمه المجتمع، بأن العرب يحيكون المؤامرات للقضاء عليهم، هو وريفاه وعانات"[(٣)].

وكانت هذه الثقافة سببًا في بناء ماض من الدم والنار:

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 163).

(2) שם، (עמ' 217).

(3) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 48).

"كانت تريده أن ينصت للغة أحلامها، أحلام أم بعيدة عن ماضٍ بنى بالدم أيضًا"[1].

وعلى الجانب الإسرائيلي كانت ثقافة العنف أعمق وأعمق، لاسيما وأنهم صانعو العنف ومحبوه؛ فيقول ريشت الأب الروحي لزئيف: "يجب أن نمحقهم... ليس هناك حل آخر"[2].

وقد قسمت هذه الثقافة العالم إلى أثنين، هما الأشرار وضحايا الأشرار: "ينقسم العالم، يا نبيلة، إلى قسمين. قسم يعيش فيه الأشرار، والآخر يعيش فيه ضحاياهم"[3].

وكنتيجة لهذه الثقافة صار الصراع المتشبع بالكراهية ديانة جديدة لها كهنتها الذين يقدمون مزيدًا من الضحايا على مذبح العنف:

"لقد تحولت تلك الدولة الصغيرة إلى إمبراطورية من الأخبار المفجعة حول العنف... وصار الصراع المتشبع بالكراهية كنوع من ديانة جديدة"[4].

ولعلنا نلاحظ أن ميخائيل يطلق الأحكام المطلقة حول العنف وثقافته التي اجتاحت المجتمع دون أن يحدد من هؤلاء الكهنة القائمين على تغذية المجتمعات بتلك الثقافة، وبدا وكأنه يساوى في غرابة شديدة بين طرفي الصراع. بل إنه وضع الجانب الفلسطيني في قفص الاتهام، ولمح إلى أن الانتفاضة الفلسطينية قد أفسدت كل شيء، وكأنها قامت كنبت شيطاني لا أساس له، ولم تقم كرد فعل للممارسات الإسرائيلية الاستفزازية:

"موجة أخرى من الصراع بين الشعبين هددت ذلك الهدوء الذي حط على الجميع... حيث كانت تلك هي الشهور الأولى من اندلاع الانتفاضة، تعاظم فيها العنف بين الجانبين"[5].

وقد ألقت هذه الثقافة بظلالها أيضًا على نفسية الأطفال الفلسطينيين، فها هو "سهيل" حفيد الأم العربية "نبيلة"، يحلم بكوابيس فظيعة منذ أن قتل صبيان من جيرانه:

---

(1) שם، (עמ' 56).
(2) שם، (עמ' 182).
(3) שם، (עמ' 157).
(4) שם، (עמ' 82-83).
(5) שם، (עמ' 86).

"بدأت بعض التغيرات المقلقة تبدو على سهيل، منذ أن قتل صبيان في الشارع الذي يقطن فيه. فقد أخذ يعانى من كوابيس ليلية، وحكت سناء في حيرة وألم أنه عاد يتبلل في فراشه "[1].

ويعبر سهيل عن جيل كامل من الأطفال الفلسطينيين الذين يعانون من ذلك الوضع النفسي المخيف، فحالته هي حالة سبعين في المائة من جيله:

"يقولون إن حوالي سبعين في المائة من الأطفال يعانون من شئ ما أشبه بالصدمة. إن سهيل يتصرف مثل معظم أبناء جيله "[2].

كما ألقت تلك الثقافة بظلالها على نفسية المرأة الفلسطينية أكثر نساء العالم فقداً للأعزاء والأزواج والآباء والأبناء:

"لقد قتل اليهود أباها وزوجها. وصورت لها الثقافة، التي تغذت عليها منذ صغرها، اليهود كوحوش مخيفة، تنطلق من عيونهم نيران سامة "[3].

ويشبه ميخائيل تلك الثقافة باللغم المزروع، الذي فات أوان التخلص منه، فانفجاره قادم لا محالة:

"تكمن المشكلة في أننا لا نعرف متى سينفجر هذا اللغم، هل عندما نخطو عليه أم عندما نرفع قدمنا من فوقه؟ . . . إن الأمر لا يختلف، فسوف ينفجر بين لحظة وأخرى "[4].

هكذا، شبه ميخائيل ذلك الوضع باللغم، دون أن يحدد من زرعه؟ ومن الذي عبث بجيل كامل من الأطفال الفلسطينيين، الذين تشربوا تلك الثقافة عنوة، وهم يرون الممارسات الوحشية الإسرائيلية التي تجرى على أرضهم وضد وطنهم. في أمور ليس من السهولة أن تمحوها ذاكرة الأيام؛ باسم الغد والسلام ومستقبل أجيال قادمة؛ كما يدعى ميخائيل. فتقول سناء في حوار لها مع زئيف وكأنها تحاور ميخائيل:

"لن يصير سهيل رجلاً طبيعيًا ولا سعيداً. فلست أدرى، هل يعود إليه الاستقرار النفسي، ولو لمرة واحدة. . . وبعد كل هذا تركض إلينا في حماس وتتوقع أن نفتح لك ذراعينا بكل سعادة "[5].

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 89).
(2) שם, (עמ' 208).
(3) שם, (עמ' 113).
(4) שם, (עמ' 121).
(5) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 210).

(٢) نبذ السلام:

حرص ميخائيل في بداية روايته على عرض تداعيات الصراع وأثاره على المجتمعين، وكأنها محاولة لرأب الصدع الذي أحدثه هذا الصراع المستمر منذ عقود، وبدت ثقافة العنف، أقوى من نداء السلام الذي دعا إليه في هذه الرواية، والتي جاءت كرسالة عبر فيها عن أحلام السلام ونبذ العنف.

ولكنه فشل في ذلك لعدة أسباب، كان أهمها تسطيحه للصراع وانحيازه الواضح للجانب الإسرائيلي، وتغييبه للجانب الفلسطيني، وعدم الاعتراف بحقوقه، حيث أظهر معاناة اليهود في الماضي في مقابل معاناة الفلسطينيين في الحاضر، ولم يجرؤ على القول بأن معاناة اليهود في الماضي لا تبرر عدوانهم وظلمهم للآخرين باغتصاب حقوقهم، والظلم الذي نال منهم لا يمكن أن يصلح بظلم آخر. وبالتالي لا يصير تحقيق المستقبل الأفضل للطرفين، رهنا بسلام يغيب الطرف الآخر أو يطالبه بمحو ذاكرته تحت شعار (شجاعة النسيان) الذي تحدث عنها ميخائيل.

إن الطرف الفلسطيني لا ينبذ السلام كما حاول أن يثبت ميخائيل، بل يسعى إليه ولكنه يريده سلامًا عادلاً يعيد الحقوق إلى أصحابها. كما أن تأرجح الطرف الإسرائيلي ما بين السلام تارة والعنف تارة أخرى، يعد من الأمور التي حالت دون أن يجيب ميخائيل عن تلك الأسئلة الملحة التي طرحها في هذه الرواية. فمن المعروف، أن جوهر الشخصية الإسرائيلية يتسم بالتردد والشك تجاه القضايا المصيرية، وهى سمة تعرقل الذاتية الإسرائيلية التي تفشل دائمًا في تحديد الوجهة الصحيحة لمستقبلها.

وهو أمر يؤكد عليه السيد ياسين بقوله: "إن العقل الإسرائيلي يمر بمحنة لا شك فيها، ولعل أبلغ ما يعبر عنها ذلك الانفصام الحاد الذي ظهر تجلياته في السنوات الأخيرة بين نزعة العنف والعدوانية واتجاه ينحو إلى الخضوع لمتطلبات السلام، كحل للصراع العربي الإسرائيلي الذي بقى مشتعلاً لعشرات السنين"[١].

وتؤكد عالمة النفس الإسرائيلية "عاميا ليبليخ" على هذا الواقع بقولها: "إنهم يأملون في السلام، ولكن لابد من الاستعداد للحرب القادمة"[٢].

---

(٢) السيد ياسين: محنة العقل الإسرائيلي، صحيفة الأهرام ١١-٩-١٩٩٧، (ص ٢٤).

(١) د. رشاد عبد الله الشامي: عجز النصر – الأدب الإسرائيلي و حرب ١٩٦٧، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٠، (ص ١٠).

وربما يرجع السبب في هذا إلى طبيعة المجتمع الإسرائيلي المعروفة، والتغيرات السياسية المتلاحقة على الواقع السياسي في إسرائيل، حيث إن " إسرائيل تتكون من عدة أمم تتعدد فيها الأعراق والثقافات والاتجاهات الفكرية. فبالإضافة للبنية التقليدية للمجتمع الإسرائيلي من عناصر السفارديم والإشكيناز والصابرا والمهاجرين الجدد والعرب الفلسطينيين، تتزاحم داخل المجتمع الإسرائيلي وتتناحر الأيديولوجيات المختلفة، حيث ينقسم الإسرائيليون إلى يهود متشددين وقوميين ودينيين وتقليديين وعلمانيين وغير ذلك من الفئات، مما أدى إلى تشرذم المجتمع الإسرائيلي وتفتته إلى عدة ثقافات ولهجات "[1]، وهو ما جعل التعامل مع السلام بالنسبة للمجتمع الإسرائيلي على اختلاف طوائفه واتجاهاته، يتم من خلال رؤى غير واضحة المعالم يملؤها التردد والشك.

وربما لهذا السبب، كان ميخائيل يدرك تمامًا صعوبة تحقيق السلام على أرض المواجهة والعنف، وفى مناخ تسيطر عليه ثقافة العنف والكراهية التي تمكنت من كلا الطرفين، ففي محاولة أخيرة لرأب الصدع، نجده يسوق أبطاله في اتجاه لندن بعيدًا عن ساحة التوتر والمواجهة، حيث يلتقي زئيف البطل اليهودي/ الفلسطيني بأمه العربية وأخواته الذين يقابلهم لأول مرة في ميدان ترافلجر بلندن الذي يشتهر بالحمائم رمز السلام، وكأنها دعوة إلى نبذ العنف باسم السلام. وهناك يلتقي الجميع بأسراب الحمام التي لا تخاف الإنسان، بل تداعبه وتقف على يديه وكتفيه، بينما يخاف الإنسان منه ويبتعد عنه.

وربما كان اختيار ميخائيل لهذا الميدان يشير إلى دلائل كثيرة، وهو الميدان الذي شهد معركة (الطرف الأغر) الشهيرة والتي قادها نيلسون ضد الأسطوليين الفرنسي والأسباني منذ ما يقرب من مائتي عام، وامتلأت ساحته بالدماء وجثث البشر، وتحول في الوقت الحاضر إلى رمز للسلام. وهو اختيار يطرح تساؤلات عديدة، أهمها هل السلام يعقب الحرب؟ وهل من الممكن أن يقوم السلام على أنقاض البشر؟ وهل من الممكن أن نتخذ من هذا المكان عظة ودرسا بأن الحروب لا جدوى لها وأن الحروب مهما طال أمدها فإن الإنسانية أبقى وأعظم؟ لاسيما وقد تحول هذا الميدان إلى ساحة الهدوء والجمال، وإلى رمز للسلام، يزوره آلاف السائحين لينشدوا فيه ترانيم السلام ويبكون فيه آلاف البشر الذين راحوا ضحية للحروب التي لا طائل منها.

---

(٢) د. محمد خليفة حسن : الشخصية الإسرائيلية واتجاهاتها نحو السلام، صحيفة الأهرام ١١ ـ ٩ ـ ١٩٩٧.

لقد جاءوا جميعًا من ساحة القتال والتوتر، إلى ساحة الهدوء والجمال الذي تميزت به لندن، فلعل ذلك يشجعهم على السلام والحب:

"لقد جاءوا من المدينة التي عانت من الحصار والاعتقالات والغلق، تلك المدينة التي تحولت إلى ساحة من القتال، والآن يتمتعون بمشاعر الهدوء الذي حط عليهم جميعًا"(١).

وهكذا يبعث ميخائيل بأول رسالة للسلام إلى الجانب الفلسطيني، وكأنه هو الطرف المتعنت الرافض له، ويعقد مقارنة بين رام الله ولندن، حيث العنف والقتال وإغلاق المناطق في مقابل الهدوء والحرية. وهى رسالة سلام لطرف واحد، كان أولى به أن يبعثها إلى الجانب الآخر الذي فرض الحصار وتمرس بالعنف:

"كانت السماء صافية، وتمتلئ بأسراب الحمام الذي يرطب بأجنحته حرارة الجو الملتهب... حيث كان الميدان يضج بالحمام والبشر... وكان الحمام يرفرف بجناحيه ويهبط مستقراً على الرؤوس والأكتاف والأذرع، لكي يلتقط الحب من فوق أيديهم"(٢).

وفي غمرة السعادة والفرح يصاب "سهيل" بهسيتريا الفزع من الحمام، فقد أفزعته رفرفة الحمام وصوته:

"أبعد ذراعيه وصرخ في هستريا... فقد أفزعته رفرفة الحمام بأجنحته... وأخافته صرخات الفرح التي كانت تطلقها نهاد وأصابته بالفزع"(٣).

وهكذا، كانت ثقافة العنف التي عاشها ذلك الطفل الفلسطيني، وشكلت وجدانه، وأثرت بالسلب على حالته النفسية، سببًا رئيسيًا في نبذ السلام والابتعاد عنه فإذا كان الأمل في السلام من أجل هؤلاء الأطفال، أبناء الغد، فما جدوى ذلك وقد نثرت بذور الخوف في نفسيتهم. ويعلق أحد النقاد الإسرائيليين على هذا الموقف بقوله: "لقد التقت الأسرتان في نهاية الأمر... وداعب الجميع أسراب الحمام فيما عدا سهيل ابن سناء الذي يعانى نفسيًا منذ ولادته في واقع من العنف والخوف من الانتفاضة"(٤).

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 203).

(2) שם، (עמ' 207).

(3) שם.

(4) דורון רייך: בתגובה לכתבה שיבה בהמשכים، עיתון הארץ، 2005/ 245.

ولعلنا نلاحظ هنا، أن الخوف ارتبط فقط بذلك الحفيد الفلسطيني الصغير، في إشارة إلى أن الانتفاضة خلفت جيلاً معيبًا، كما ذهب ذلك الناقد الإسرائيلي، وهو أمر يخلط الأمور ويبعدنا عن السبب الحقيقي لهذا الوضع المعوج الذي يبحث له ميخائيل عن مخرج، ولكنه يبتعد عن المخرج بابتعاده عن الحقيقة التي تقول، إن الممارسات الوحشية لجيشه في المناطق المحتلة هي التي خلقت هذه النفسية المعيبة وجعلتها تنبذ السلام غير القائم على العدل وإرجاع الحقوق، حتى إن ميخائيل نفسه لم يضع تصورًا لذلك السلام، سوى رفعه لشعار (شجاعة النسيان).

وتتضح عدم حيادية ميخائيل في انطلاق نداء السلام في الجانب الفلسطيني، وكأنه هو الجانب الوحيد الذي ينبذ السلام ويرفضه، ففي روايته هذه، تتبع الأم العربية نداء قلبها، "وتتعلم الإنجليزية وتصبح ناشطة للسلام ومتحدثة فلسطينية، وتعيد الاتصال المفقود مع ابنها البكر"[1].

في حين أن هذه الرواية تنتقض الرجل الفلسطيني الذي ينبذ السلام، ويعشق الإرهاب ـكما يسميه ميخائيلـ "ففي هذه الرواية يعطى ميخائيل لنبيلة وابنتها سناء حق التعبير عن نفسهما، ولكن في ظل شروط صارمة، فكل منهن فقدت زوجها بفارق سنوات معدودة بين الواحدة والأخرى. وفقط حين يموت الرجل الفلسطيني، أو هكذا مطلوب من القارئ الإسرائيلي أن يعتقد، تنتعش المرأة الفلسطينية، حيث يبدو الرجل في هذه الرواية، كنمط متطرف يستخدم الإرهاب كبديل عن الرجولة، إن لم يكن تعويضًا عن عجزه"[2].

وهكذا عزف ميخائيل على نغمة العمليات الاستشهادية، وربما كان أول أديب إسرائيلي يضم كلمة "إرهابي" إلى قاموس الأوصاف العربية ـ كما ذكرنا سابقًاـ وهكذا صارت أعمال المقاومة إرهابًا ونبذًا للسلام، وبخلط المفاهيم تتغلغل الكراهية في النفوس ويستعد كل طرف لمحو الآخر كما يقول زئيف بطل الرواية:

"يحلم كلا الشعبين بنفس الحلم، فكل طرف يحلم بأن يستيقظ في الصباح ويجد الطرف الآخر قد اختفى من الوجود ومحي تمامًا. والفارق الوحيد هو أن كثيرين لدينا يخجلون من البوح بهذا، وينهرون هؤلاء الذين يتحدثون عن ذلك علنًا. أما بالنسبة للجانب الفلسطيني، فإن الأغلبية تفخر بهذا الحلم، بصفة خاصة، وتستعد للموت من أجله. لقد

(1) שם.
(2) שם.

أكد أبى على هذا، وبكلمات واضحة، وقال لي إن أخي سيحاربني حتى تزهق روحي وروحه، ومن أجل ماذا؟ من أجل هذا الحلم "[1].

وهكذا، وجد ميخائيل أن هناك صعوبة في تحقيق السلام على أرض الواقع، فهناك حاجز نفسي أو جدار فاصل من الذكريات والأحداث والعنف يحول بين الطرفين دون تحقيقه، وهو ما عبر عنه ميخائيل على لسان القاص في وصفه لحديث زئيف البطل مع أخته الفلسطينية "سناء" وهو يحاول التقرب منها:

"إلى أي شئ كان يشير؟ هل إلى قيوده؟ أم إلى قيودها؟ أم إلى قيود شعبين تجاوزا طريق الموت، أما هو وهى فقد وقعا في الشرك معًا في منتصف هذا الطريق "[2].

(٣) مشروع قبرص:

ولما استعصى الحل على ميخائيل في البحث عن مخرج لهذا الصراع المزمن، نجده يسوق أبطاله مرة أخرى بعيداً عن ساحة القتال والتوتر خارج أرض المعركة، فيفاجئنا البطل بمشروع قبرص، ذلك المشروع اليوتوبى الذي يدعو فيه الأصوات العاقلة من كلا الطرفين إلى الحوار والتعالي على ذلك الصراع المجهد، حيث ينوى إقامة مشروع ضخم في قبرص يعمل فيه الفلسطينيون والإسرائيليون معًا:

"قطع رنين التليفون مشاوراته مع الخبراء بشأن مشروع قبرص الذي يشاركه فيه شمايل، ورجل أعمال فلسطيني مهاجر في ألمانيا، ورأسمالي سعودي يقضى معظم أيامه بلوس أنجلوس "[3].

ووجد زئيف أن هذا المشروع هو الأمل الوحيد في حياته بعد أن تضاءلت فرص التعايش على أرض الواقع:

"لقد آمن زئيف بأن هذا المشروع من أهم المشروعات في حياته "[4].

وعمل على تحقيقه ووهب له كل ثروته، وبدأ في تنفيذه:

"بالإضافة إلى هذا الفندق الضخم الذي بدأ في بنائه بالفعل، فقد صمم هناك أيضًا في

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 109-110).
(2) שם, (עמ' 99).
(3) שם, (עמ' 103).
(4) שם.

الوادي الأخضر المنحدر إلى البحر ما بين ليمصول ولارنكا منتجعات رائعة، ومركزًا صحيًا تابعًا لمستشفى كبير، تعمل فيه أطقم طبية من قبرص وإسرائيل وفلسطين "[1].

ولا ندرى لماذا اختار ميخائيل قبرص لإقامة هذا المشروع اليوتوبى، ربما لأن قبرص تشتهر بعملية التزاوج المدني بين الأفراد، ورأى ميخائيل أن هناك صعوبة في تحقيق هذا التزاوج الذي يحلم به على أرض الواقع فذهب بأبطاله إلى هناك.

ويعلق أحد النقاد الإسرائيليين على هذا المشروع بقوله: "يتوتر الشعور فقط حينما نقرأ حول المشروع اليوتوبى الذي يريد زئيف الابن أن يقيمه في قبرص، فهو يحلم بجزيرة يمكن للأطراف العاقلة من الطرفين أن تلتقي فيها وتتعالى على هذا الصراع المحلى. إن اليوتوبيات مزعجة بطبيعتها، غير أن يوتوبيا التآخي بين الرأسمال اليهودي والحرفانية العربية الفلسطينية، أي بين النشاط الاستثماري اليهودي وبين القوى العاملة الفلسطينية الماهرة، هي مزعجة على نحو خاص. فهل التمسك اليهودي بالمناطق هو البديل الفعلي لنزاع استعصى على الحل؟ "[2].

إن هذا المشروع الخيالي الذي جاء به ميخائيل في هذه الرواية ليس أكثر من تعبير صارخ عن كآبة الصراع ومقته واستمرار يته في نفس الوقت، دون منتصر أو مهزوم، وتعبير عن فشله في تصور حل لمثل هذا الصراع، الذي يهدأ فقط أحيانًا لكنه لم ينته، ويبدو أنه لن ينتهي:

"لم تنته الحرب بعد. فمازلنا نذبح بعضنا البعض. ومن السابق لآونة أن نفكر في هذا، فمازالت الزجاجات الحارقة هنا، والحجارة هناك، وما أن ينتهي هذا الأمر، حتى يبدأ مرة أخرى. إنه صراع لن ينتهي يا بنى، فهو متواصل، يهدأ مرة ويشتد مرة أخرى، لكنه لم ينته ذات مرة. إنك يا زئيف تبنى يوتوبيا، وتريد أن تقيم على أرض غريبة ما لم ننجح في إقامته هنا "[3].

ولعلنا نلاحظ هنا، مرة أخرى، اتهام الجانب الفلسطيني بعرقلة جهود السلام، فقد ذكر ميخائيل الحجارة والزجاجات الحارقة فقط، وتجاهل الممارسات الإسرائيلية الوحشية في المناطق المحتلة، والغارات الإسرائيلية، وعمليات التصفية، كسبب رئيسي في استمرارية

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 103).
(2) דורון רייך: בתגובה לכתבה שיבה בהמשכים, שם.
(3) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ' 103).

الصراع واحتدامه. لذا، فقد وضع ميخائيل نفسه في مأزق عسير عندما اختار أن يجرى حواراً فحسب بين طرفين متنازعين طلب منهما الترفع عن الماضي، والتحلي بشجاعة النسيان، دون أن يحدد لنا وجهة الحقوق المغبونة، ودون أن يحدد لنا صراحة، من الظالم والمظلوم، وهو حوار لا يمكن أن يقوم بغض الطرف عن ممارسات طرف دون الآخر، وتغييب طرف من أجل الآخر، ولا يمكن أن يقوم ما لم تكن هناك شجاعة الاعتراف بحق الآخرين في الوجود، ورد حقوقهم المغتصبة كاملة، وقتها يمكن أن يكون للحوار جدوى، ولشجاعة النسيان مثوى.

لقد ظل زئيف يدافع عن مشروعه بكل حماس، وحاول أن يقنع به "شمايل"، والآخرين ممن يعارضون هذا المشروع فهو يقول:

"لقد أجريت دراسة عن غرف العمليات في إسرائيل، ووجدت أن هناك أطباء يهود وعربا يعملون معًا منذ زمن. فهل تعلم كم عدد اليهود الذين زرعت في أجسادهم أعضاء عربية، وكم عدد الأعضاء اليهودية التي زرعت في أجساد عربية؟ لقد زرت مستشفيات في حيفا، ونهاريا وبير شيفع. صدقني، شمايل، لا يوجد سبب يعوق نجاح هذا المشروع في قبرص"[1].

ويعلق ب. الموج على حماس زئيف لهذا المشروع بقوله: "لقد أصبحت حياة زئيف/ بدير الفلسطيني/ اليهودي، في نهاية الأمر، كنوع من التراجيديا، فلم يعد مهيأ للبحث عن حل حقيقي، ولا يوجد أمامه سوى هذا الحلم اليوتوبى بإقامة مركز فلسطيني إسرائيلي في قبرص (كما لو أنه ترانسفير تطوعي لمن سأم مصاعب الحياة في تلك الأرض المقدسة)"[2].

لقد تشبث زئيف بالأمل الكبير في أن يحل السلام في نهاية الأمر:

"ربما يحل السلام في نهاية الأمر، ويجد الأطفال بأنفسهم الطريق الذي يؤدى للمصالحة بينهم"[3].

فيفاتح أمه الفلسطينية في المشروع ويتمنى مشاركة أخوته جميعًا، بالإضافة إلى عبد الوهاب صديق الأسرة:

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ׳104).

(2) ב. אלמוג: ביקורת ספרים על יונים בטרפלגר של סמי מיכאל, שם, (עמ׳4).

(3) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר, שם, (עמ׳135).

"فكرت في أن سناء وكريم يستطيعان المشاركة في هذا المشروع. فإذا كنت تثقين في عبد الوهاب، فهو أيضًا يستطيع مساعدتنا، سواء كإعلامي أو كصاحب قدرة تنظيمية"[١].

فلم تتحمس الأم الفلسطينية لهذا المشروع، فهم في حاجة إلى وطن آمن وبيت دائم:

"عبد الوهاب تجول كثيرًا، مثلى ومثل أختك وأخيك. الثلاثة في حاجة إلى وطن، وبيت دائم"[٢].

ولكن زئيف يرى في ذلك حلاً مرضيًا، فهم في حاجة إلى مكان محايد:

"قبرص ليست بعيدة. وسوف أكون معكم في أغلب الوقت. إننا نستطيع أن نعيش على أرض محايدة"[٣].

ومرة أخرى نجد ميخائيل يضع نفسه في تناقض آخر، يهدم الأسس الرئيسية التي بنى عليها روايته، فهو يعلم تمامًا أن زئيف البطل هو في الأصل عربي ودعوته لأسرته الفلسطينية لترك وطنهم هي دعوة للترانسفير، لاسيما وأن زوجته الإسرائيلية رفضت هذا المشروع ورفضت حتى هويته العربية، وربما يكون هذا المشروع صدى لأصوات إسرائيلية دعت إلى استغلال الأراضي العربية الشاسعة لتوطين اللاجئين الفلسطينيين بدلاً من استمرارية الصراع، وهو ما أكد عليه ميخائيل على لسان البطل في الرواية:

"لدى كثير من الأموال نستطيع أن نشترى بها بيوتًا جميلة، أجمل ممن كنتم تعيشون فيها"[٤].

وباسم الأمومة تقتنع "نبيلة" بهذا المشروع وتدفع "كريم" ابنها وزوجته الجديدة "زهوة" إلى المشاركة فيه، كما لو أنها تتعلق بآخر أمل بعدما فقدت القدرة على تحمل هذا الصراع، بينما تتمسك "سناء" بموقفها الرافض لهذا المشروع، فقد فضلت الصراع والموت على ترك وطنها واعتبرته ترانسفيراً:

"إذا لم يكن هذا ترانسفيراً، فماذا يسميه أخونا من حيفا، . . . إنه مكيدة، فما معنى أن ينتقل الفلسطينيون إلى قبرص. . . حسن، فلتذهبوا جميعًا إلى الجحيم، إلى قبرص، عبد الوهاب وكريم وابنته، جميعًا"[٥].

---

(1) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 194).
(2) שם، (עמ' 195).
(3) שם.
(4) שם، (עמ' 196).
(5) סמי מיכאל: יונים בטרפלגר، שם، (עמ' 229-230).

"بمساعدة نبيلة وزهوة واصل كريم وعبد الوهاب الخطوات الأولى لمشروع قبرص الذي صار أكثر وقعًا وقوة "[1].

مرة أخرى يمكن القول، إن المبادرات التي أطلقها ميخائيل في هذه الرواية، تتجه ناحية الجانب الفلسطيني، إلى الأسرة الفلسطينية، فلماذا لم يوجه دعوته هذه إلى عانات زوجة زئيف الإسرائيلية، التي رفضت قطعيًا مجرد الاعتراف بأسرته العربية؟ ولماذا يحث فقط الشخصيات الفلسطينية على سماع صوت العقل والحكمة، ويتجاهل الشخصيات الإسرائيلية على الجانب الآخر؟ فإذا كان يبحث، حقيقة، عن مخرج للصراع فإن صوت العقل والحكمة على هذا النحو لا يأتي على حساب ممن فقدوا وطنهم وسلبت حقوقهم، فقد كان أولى بميخائيل أن يملك (شجاعة الاعتراف) بتلك الحقوق، لكنه أبى أن يعترف خشية أن يؤثر ذلك على حبه لإسرائيل كما قالها صراحة على لسان زئيف في هذه الرواية:

"إذا كنت أتودد إلى نبيلة وأختي وأخي، فلم يكن هذا على حساب إسرائيل أو أديف أو عانات "[2].

وربما كان موت الشقيقين في نهاية الرواية، مأزقًا آخر وقع فيه ميخائيل وأبعده كثيراً عن فكرة روايته التي حاول من خلالها الإيماء بفكرة المصير المشترك ونبذ العنف والتعالي على الصراع، وكشف عن نيته الحقيقية في تفضيل الترانسفير كحل، المستفيد الوحيد منه هي دولته، لاسيما وقد دفع بشخصيات فلسطينية فقط إلى قبرص بعد موت البطل وأخيه الفلسطيني، فقد بدأ عبد الوهاب بالفعل في العمل بقبرص، وسيلحق به كريم وزهوة بعد شهرين أو ثلاثة (الرواية ص ٢٥٠) وتحسنت حالة "سهيل" الصحية في قبرص (الرواية ص٢٦١)، أما "نبيلة" و"سناء"، التي تعنتت في الذهاب إلى قبرص، فقد وقفتا على شاطئ البحر في قبرص يلعنان فلسطين وإسرائيل:

"وقفت كلتاهما على شاطئ البحر في قبرص. . . وأخذت نبيلة تلعن إسرائيل وفلسطين اللتين على الجانب الآخر من البحر "[3].

(1) שם، (עמ׳214).
(2) שם، (עמ׳237).
(3) שם، (עמ׳260).